رحلات السندباد



الرحلة الأولى

الأميرة المخطوفة

رحلات السندباد



الرحلة الأولى

الأميرة المخطوفة

تأليف وإعداد
رفعت عفيفي

الدار النموذجية
للطباعة والنشر



شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: 11/558
تلفاكس: 655015 - 632673 - 659875 00961 1
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 729261 7 00961
بيروت - لبنان

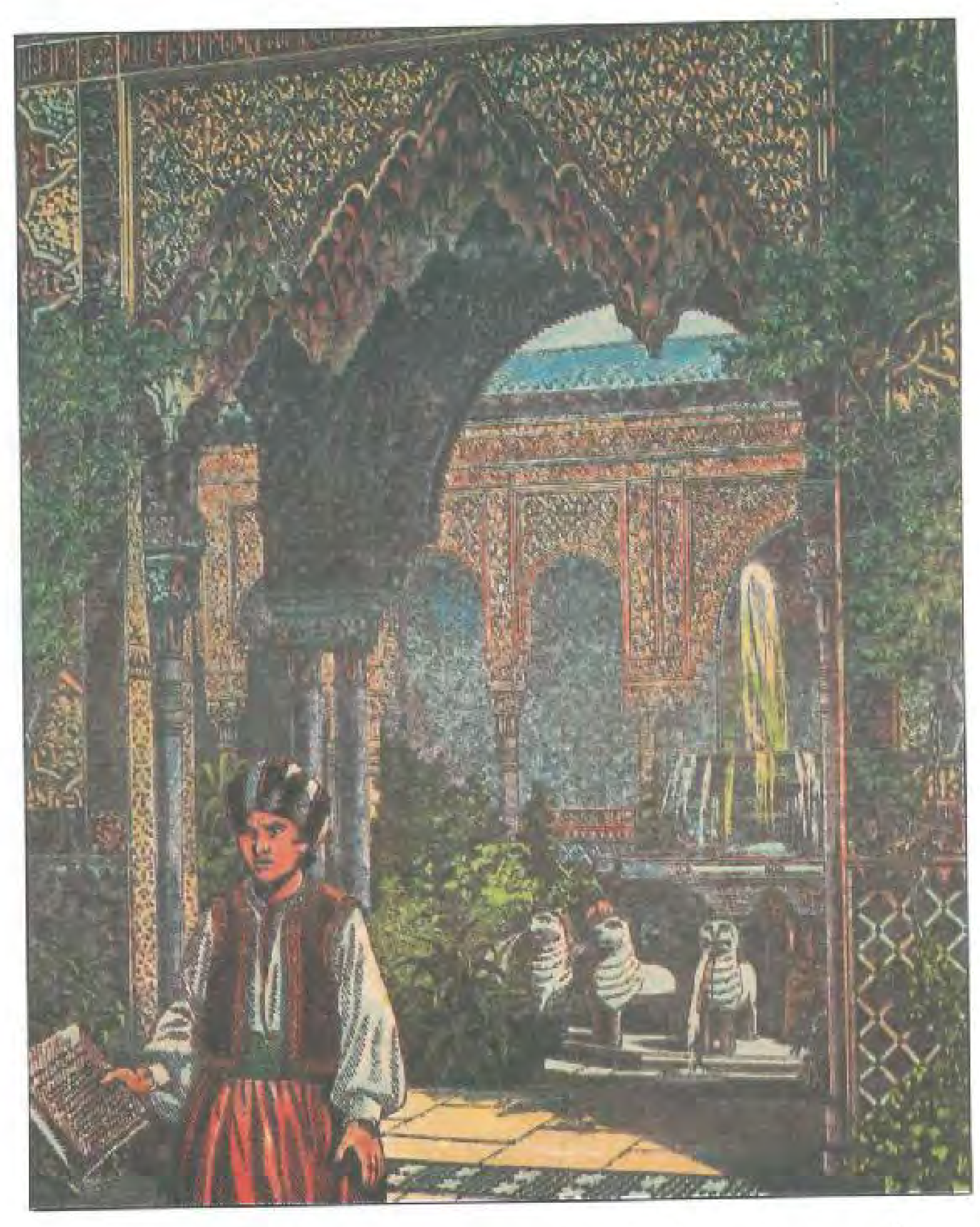
• المطبعة العصرية
كفرجرة - طريق عام صيدا جزين
00961 7 230841 - 07 230195
تلفاكس: 655015 - 632673 - 659875 00961 1
صيدا - لبنان

2014 - 1435 هـ

E Mail alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

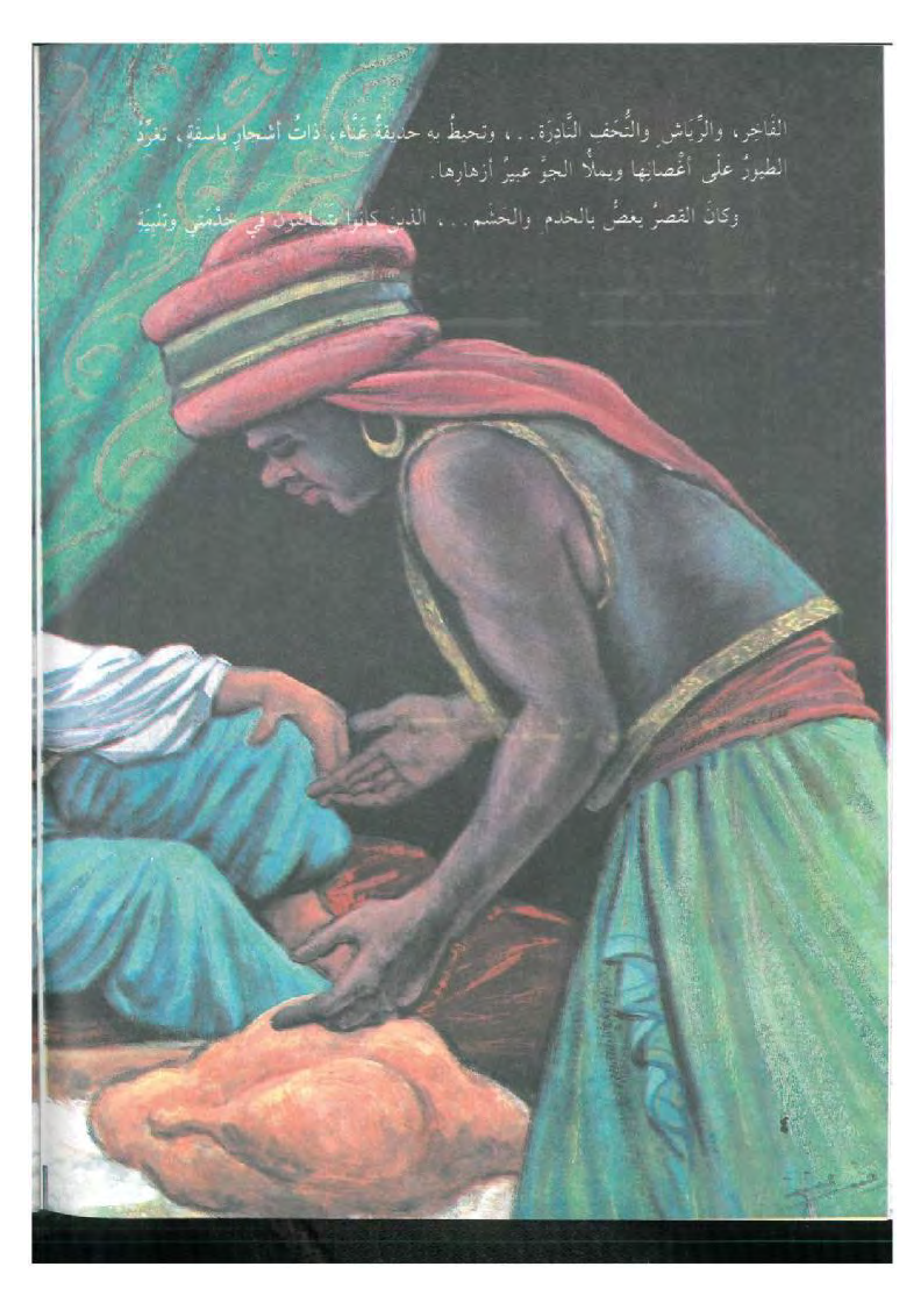
موقعنا على الإنترنت

www.almaktaba-alassrya.com



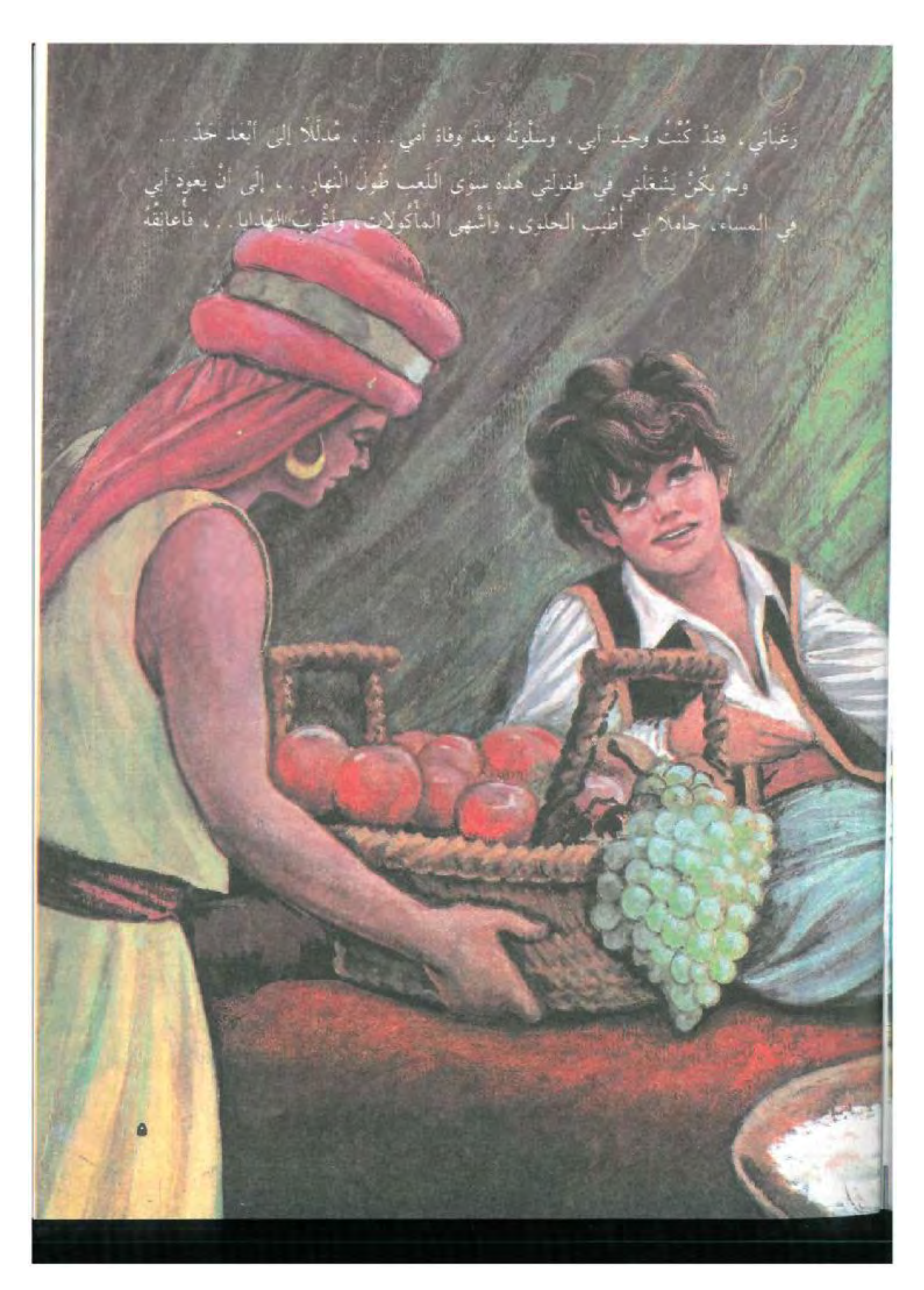
أنا «السندبادُ البحريُّ»، صاحبُ الرحلاتِ الكثيرةِ، والمُغامَراتِ المُثيرَة. . .

تبدأُ حِكايتي منذُ كُنْتُ طِفلاً بمدينةِ «بَغدَاد»، وكان والدي شَيْخَ بَحَّارِيها، ومِنْ أكابِرِ أثْرِيائِها. . ، نَشَأْتُ في قَصْرٍ كبير، عالِي البُنْيَان، كثيرِ الحُجُرات، مليءٍ بالأثاثِ



الفَاخِرِ، والرِّيَاشِ والتُّحَفِ النَّادِرَةِ. . ، وتحيطُ به حديقةٌ غَنَّاء، ذاتُ أشجارٍ باسقةٍ، تغرِّدُ الطيورُ على أغْصانِها ويملأُ الجوَّ عبيرُ أزهارِها.

وكانَ القصرُ يغصُّ بالخدمِ والحَشَمِ. . ، الذينَ كانوا يتسابقونَ في خدمَتي وتلْبِيَةِ



مُدلَّلاً إلى أبْعد حَدّ...، فقدْ كُنْتُ وحيدَ أبي، وسلْوتَهُ بعدَ وفاةِ أمي...، رَغَباتي،

ولمْ يكُنْ يشْغلُني في طفولتي هذه سوى اللَّعب طُولَ النّهار...، إلى أنْ يعودَ أبي في المساء، حاملاً لي أطيبَ الحلوى، وأشهى المأكولات، وأغْربَ الهدايا...، فأعانقُهُ



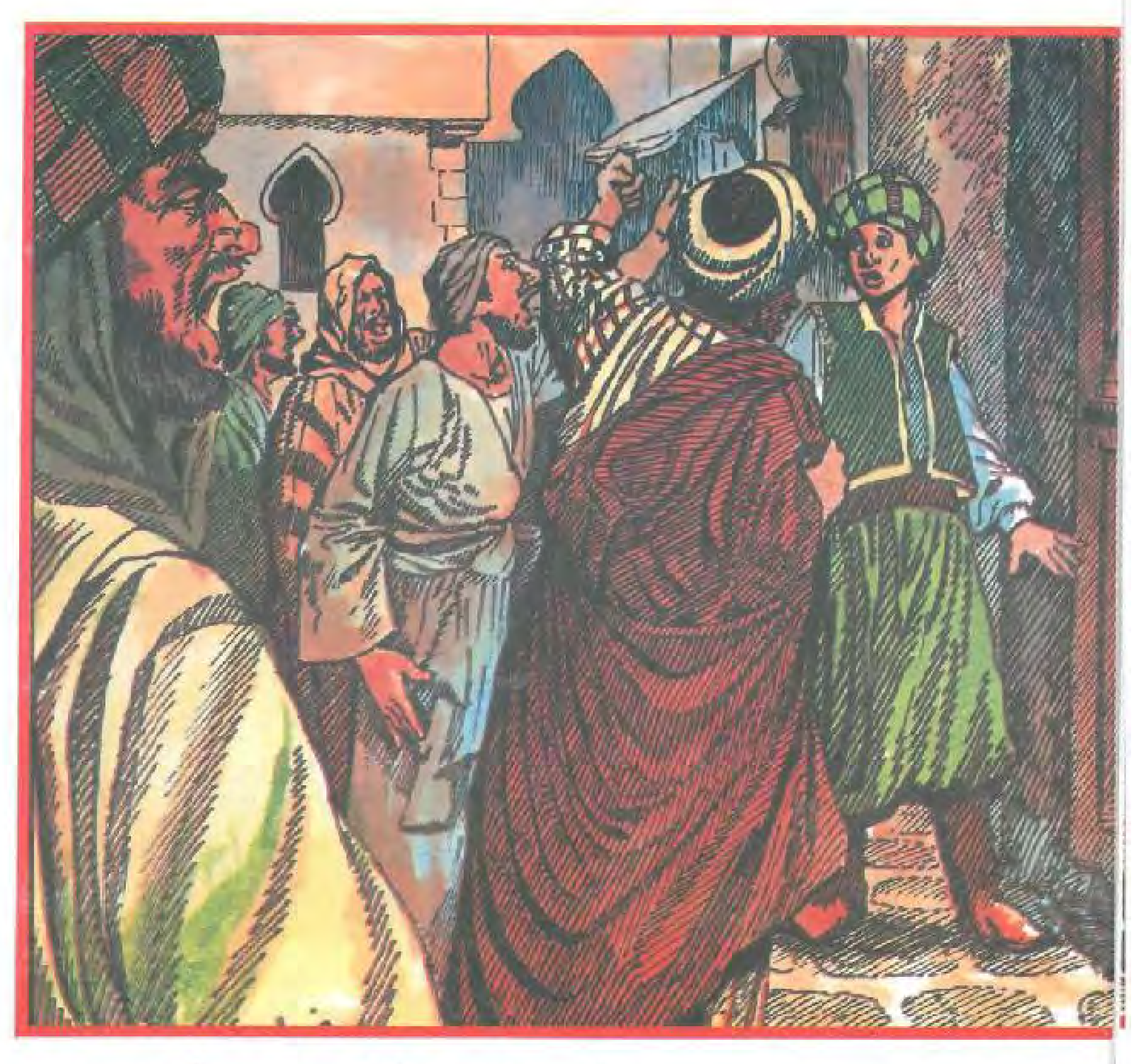
وأحتضِنُه، ويُوسِعُني هُوَ ضَمّاً وشمّاً، ثم أجلسُ إليه وأستَمِعُ إلى حكاياتِهِ عنْ رحلاتِ التُّجّار ونوادِرِهِمْ، وأسفارِهِمْ عَبْرَ القِفارِ وفي الْبِحَار.

حينَ بلغْتُ السادسَةَ منْ عُمْرِي أرادَ لي أبي أنْ أتلقّى عُلُومي الأُولى وآخُذَ حظيِّ منَ التعليمِ والتأديبِ، فَأحْضرَ لي المعلمينَ والفقهاءَ الذينَ بذلُوا غايةَ جهدِهِمْ وكُلَّ وُسْعِهم... منْ أجلِ ذلكَ. لكنْ غلبَني الطَيشُ واللَّهْوُ وحُبُّ اللَّعِبِ على الدَّرْس، فلمْ أحَصِّلْ مِنَ الْعِلْمِ إلا النَّزْرَ اليَسِيرَ.. ممّا أحْزَنَ والدِي كثيراً.

ومرَّت الأيّام...

وتعاقَبَتِ الشهورُ والأعْوام...، وبلغْتُ مبْلَغَ الشَّباب وأصْبَحْتُ على عَتَبَةِ الرُّجُولة...، فطلب أبي إليَّ أنْ أكونَ لهُ عوْناً فِي عملِهِ وتِجارَتِه، خُصوصاً بعْدَ أنْ أصْبَحَ شَيْخاً كبيراً، تقدَّمَ بهِ العُمْر، وَأَفْقَدهُ الحزنُ على أُمِّي كثيراً منْ نضارةِ الرِّجالِ وَحَيوِيَّتِهِمْ...

لكنِّي لمْ أجِدْ في نفسي ميْلاً إلى العَمَل...، ولا رغْبةً في التِّجارة...، بل انصِرافاً تامّاً إلى اللَّهْو...، وقضاءِ أكثرِ الأوقاتِ في رحْلاتِ الصَّيْد مَعَ الأصْدقاء.



وذاتَ مساء . . . ، حينَ عُدْتُ إلى الْقَصْرِ، رأيْتُ تُجّارَ المدينةِ يملأونَ أرجاءَهُ وهُمْ في حُزْنٍ وبُكاء، والخدَمَ يَنْتَحِبونَ، وجوّ الكآبةِ يخيِّمُ على أنْحائِهِ . . . ، وعرفْتُ بأنَّ أبي حبيبي قدْ فارَقَ الحَياة.

مضتْ عليَّ أيامٌ كثيرةٌ وأنا حزينٌ لفَقْدِ والدي الَّذي كانَ كُلَّ دُنْيايَ بعدَ أنْ فقدتُ أمي وأنا طِفْلٌ رَضيع . . ، فما عرفْتُها ولا اسْتمتَعْتُ بحنانِها ولا دِفْءِ حِضْنِها، وبقيتُ داخلَ الْقَصْرِ لا أغادِرُه . . ، ولا أعرِفُ كيْفَ أواجِهُ الحياةَ . . والمسْتَقْبَل.



وفي صباحِ يومٍ جاءَني كبيرُ الخَدَم ـ وكانَ مقرَّباً منْ أبي ـ يحملُ بيدِهِ صندوقاً صغيراً فيهِ رُزْمَةٌ منَ المفاتيحِ وسلّمَهُ لي قائلاً:

ـ هذه ـ يا سيدي ـ مفاتيحُ حُجُراتِ القبْوِ حَيْثُ خزائنُ أَبيكَ، وقدْ آنَ لكَ أنْ تفتحَها لتُحْصِيَ مالَكَ، وتعرفَ مَا تَرَكَهُ لكَ والدُك..

شكرتُ الرجلَ، وطلبتُ إلَيْهِ أنْ يرافِقَني إلى القَبْوِ..، فَأَحْضَرَ مِشْعَلاً ونزلْنا سويّاً إلى القَبْوِ..، وفتحتُ البابَ، فرأيتُ مجموعةً منَ الحجُراتِ، دخلتُها واحدةً بعدَ الأُخرى وأنا في حَيْرةٍ وعجَبٍ وذُهول...

كانتِ الحجُراتُ مليئةً بقُدورٍ طافحةٍ بالدّنانيرِ الذهبيَّة، وصناديقِ المُجَوْهَرات، مِمَّا لا يُحصيهِ عَدٌ، ولا يُقدَّرُ بِمَال.

فغمَرَتْني السعادَةُ، وذهبَتِ الدهشةُ بحُزْني، ونَسيتُ فَجيعَتي بِأبي...، أخذتُ بعضاً مِنَ المالِ، وحَمَّلْتُ الخادمَ قَدْراً مِنْهُ، وأغلقْتُ الحجُراتِ وبابَ القبْو، وصعدْتُ إلى غرفَتي، وأمرْتُ كبيرَ الخدَم أنْ يُضيءَ ـ معَ قدُومِ اللّيلِ ـ قناديلَ القصْرِ كُلَّها، ويُرسلَ في طلَبِ أصدِقائي ورِفاقي...

وفي المَساء كانَ القصرُ يتلألأُ بالأنْوار، ويَحْفَل بالزُّوّار...، منَ الأتْرابِ والرِّفاقِ الذينَ أخبرتُهُمْ بما عِنْدي..، وما صَارَ إليْهِ أمْري..، فَأَخذوا يهنِّئونني، ويزيِّنون لي الحديثَ، ويزخرفُونَ الكلامَ، ويَكيلُونَ المَديح...

وأعطيْتُهُمُ الكَثيرَ مِنَ الأموالِ والهدَايا، وافترقْنا لنلتقِيَ في الليلةِ التَّالِية.

وجاؤوني عشيَّةً ومعهُمُ المُنْشدونَ والمُغنُّونَ...، وسهِرْنا اللّيْلَ كله في طَرَبٍ وغناءٍ وعَزْف...، ومَعَ بزوغِ الفجْرِ خرجُوا منْ عِنْدي محمَّلينَ بمَا أعْطيْتُهُ لهُمْ منْ مَال، وما أغدقْتُهُ عليهِمْ منْ هدايا.

وتكرَّرتِ الليالي...

وكلُّ ليلةٍ تمْضي يَذْهبُ معهَا الكثيرُ...، وكلُّ ليلةٍ تأتي تأخذُ معها الكثيرَ ـ أيضاً ـ، حتَّى أصبحتُ حديثَ كُلِّ أهلِ المدينةِ بتبذيري وإسْرافي وفَسادي ولَهْوي...

وجاءَني بعضُ المخلصينَ ينصحُني، ويطلبُ إليَّ أن أُمسِك...، وأنْ أصْرِفَ عنّي رفاقَ السوء، وأفْتحَ متجرَ أبي الذي ما زال مغْلَقاً منذُ وفاتِهِ...، لكنّني سَخِرْتُ مِمَّن نصحَني...، وتابعْتُ مَنْ يتملَّقني... إلى أنْ ذهبَ كُلُّ المالِ، وساءَ الحالُ، وانفضَّ عني النُّدَماءُ، وهَرَبَ الأصْدقاء..، وبِتُّ لا أَمْلكُ شيئاً بعدَ أنْ بعْتُ كُلّ ما في

الْقَصْر. . . منْ تُحَفٍ وأثاثٍ. . .، كما صَرَفْتُ الخدَم. . . أيْضاً، لعَجْزي عنْ إطعامِهِمْ فَضْلاً عنْ نَفَقَتِهِمْ وأجورِهِمْ.

وفي ليْلةٍ اشتدَّ عليّ ظَلامُهَا. .، وقدْ جلسْتُ حزيناً، أهْلَكَني الجوعُ، وأَرَّقني السُّهادُ. .، أخذْتُ أفكِر. . ماذا أفْعَلُ؟ وكيْفَ أستَمِرُّ؟.

وأنتهى بي تفكيري إلى بَيْع القصر الَّذي لَمْ يَعُدْ قَصْراً. . .



ومع أوّل خيْطٍ من ضوْء النهار خرجْتُ إلى الشارع أَضْربُ فيهِ على غير هُدًى، حتَّى آنتهيْتُ إلى متجَرِ صديقٍ لأبِي. . . وقفْتُ عندَ بابِهِ كاسِفاً. . .، وما أنْ رآني الرجلُ حتَّى أقْبلَ عليَّ وأخَذَ بيدي وأجْلَسَني إلى جِوَارِه. . .، ثم نادَى على أحَدِ غِلْمَانِهِ وأسَرَّ في أُذُنِهِ بشيْءٍ. . .، فانْطلقَ الغلامُ. . .، وحاولْتُ أن أتكلَّمَ فلمْ أسْتطِعْ فقَدْ خَنَقَتْني الدُّموع. . .، فربَّتَ الرجُلُ على كَتِفي وقالَ: لا تَقُلْ شيْئاً الآنَ.

وبعدَ بُرْهةٍ عادَ الغُلامُ حاملاً فَوْقَ رَأْسه قصْعَةً كبيرة تَفُوح منها رائحةُ الطعامِ الشهيِّ، وضَعَها بَيْن أيْدِينا. .، وحاولْتُ أنْ أمْتنِعَ عنِ الأكلِ رَغْمَ ما بِي من جُوعٍ، فألحَّ

الرَجُل وأَقسَم. . . ، فشاركتُهُ طعامَهُ، وأحسسْتُ بأَنّ عافِيتي في نَفْسي وبَدني تعُودُ إليّ، فحمدْتُ آللّهَ تعالىٰ، وشكرْتُ الرَّجُلَ على ما أوْلاني، فآستغْفَرَ وقَالَ:

ـ الآنَ تستطيعُ ـ يا بنيَّ ـ أن تحدّثني بما جئتَ منْ أَجْلِهِ.

فقلتُ لهُ: لقدْ جئتُ لأعْرِضَ عليْك شراءَ قصرِ أبي. . ، فقالَ: ولماذا تريدُ بيْعَهُ؟.



قلتُ: «إنَّني لستُ بحاجةٍ إليْهِ.. بلْ بحاجةٍ إلى ثمنِهِ»، فقالَ: «ولِمَاذا تريدُ ثمَنَهُ؟».

قلتُ: «لأنَّني لمْ أعُدْ أملِكُ ديناراً ولا دِرْهماً..»، فقالَ: «وبعدَ أنْ تنفِقَ ثمنَ القَصْرِ ولا يَبْقى منْهُ شيْءٌ... ماذا تَفْعَلُ؟»، قلتُ: «الأمْرُ بعدَ ذلكَ لِلّه يَفْعَلُ ما يَشاء..».

قالَ: «إنَّ اللّهَ يأمرُنا أن ننظُرَ في أمورِنا، والتوكُّلَ عليهِ بعْدَ التعقُّلِ... أَلَيْسَ كذلكَ؟» فَسَكتُّ..، فتابَعَ الرجلُ يقولُ: «إسْمعْ يا بنيَّ...، إنَّني أستطيعُ أنْ أشْتريَ منكَ القصْرَ، وأُعْطِيكَ ثمنَهُ الآنَ... فوراً...، وسوْفَ أكونُ سعيداً بذلكَ؛ لِعِلْمي أنَّهُ قصْرٌ بَديعٌ، ليسَ لهُ مثيلٌ في «بغداد» كُلِّها، ولقَدْ أنفقَ والدُكَ ـ رحمَهُ اللّهُ ـ على بنائِهِ أمْوالاً طائلَةً..، ولكنَّني أرجو أنْ تَسْمَعَ كلامي وتَعْمَلَ بنصيحتي...

عليْكَ أنْ تعْملَ وتكدَّ وتكافِحَ..، فالحياةُ ـ يا بنيَّ ـ ليستْ أَخْذاً بلا عَطاء، ولا سعادةَ بلا تَعَب، والإنسانُ الذي لا يَعْملُ لا حَقَّ لهُ في الحياة..، وأكثرُ الناسِ مالاً همْ أكثرُهُمْ عَمَلاً، وما مِنْ كبيرٍ في الثَّراءِ إلّا وكانَ في الأصْلِ صغيراً، وصاحبُ المالِ بغيْرِ عملٍ كأرْضٍ بلا زرْعٍ...، وهكذا كانَتْ حالي...

لقدْ كنتُ في بَدْءِ حَياتي فقيراً مُعْدَماً، فعطَفَ عليَّ والدُكَ واستخْدَمني عندَهُ، وحينَ رأى جُهْدِي وأمانَتي ضاعفَ أَجْري، ويوْمَ أردْتُ أنْ أكونَ تاجراً مُسْتقلاً في عَمَلي وقفَ إلى جانبي وساعدَني، ولذلكَ فَلنْ يضيعَ جميلُهُ وصنيعُهُ عِندي..، فإذا أردْتَ أنْ تعملَ معي فستكونُ عندي مثْلَ ولدي، وإذا أرَدْتَ أن تعملَ وَحْدَكَ فهناكَ مَتجرُ أبيكَ... إفْتَحْهُ وانْظُرْ ما فيه.. وخُذ ما تحتاجُهُ مِنّي..، المهمُّ أنْ تَعْملَ ولا تكسلْ».

إرتاحتْ نَفْسي إلى كلامِ الرَّجُلِ، وانْشَرَحَ صَدْري...

فقُلْتُ له: «لقد قرَّرْتُ أنْ أفتحَ متجرَ أبي، لعلَّهُ يَرْضى عنّي ويسامِحُني».

فقالَ الرجل: «هذا هُوَ الصَّوابُ... وفَّقكَ اللّهُ وهَداكَ ورَعاك...».

وحينَ هَمَمْتُ بالانصرافِ قامَ الرجُلُ وقدَّم إليَّ صرَّةً من المالِ وقالَ:

- هذه ألفُ دينار إجْعَلْها رأسَ مالِكَ لتُعينكَ على ما تُريد...

فأخذتُها منهُ شاكراً لهُ فضلَهُ ونُصْحَهُ وكرمَهُ، مُعْتبراً إيّاها بمثابةِ الدَّيْنِ عندي، وتوجَّهْتُ منْ فوْري إلى مَتجرِ أبي، ووقفْتُ عندَ بابِهِ المغْلَق... أتأمّلُهُ متحسِّراً وقَدْ علاهُ الترابُ، وفي عينيَّ دموعُ حسْرةٍ وأسىً على ما أصابَهُ، وما كانَ مِنِّي.

ورآني بعضُ جيرانِ والدي، فالتفوا مِنْ حوْلي، وبدَلاً مِنْ أنْ يُشجِّعوني، راحَ أكثرُهُمْ يسخرُ مِنِّي، ويقولُ: «هلْ جئتَ لِبيْعِ دُكّانَ أبيك بعْدَ أنْ أهْدَرْتَ ثروتَهُ؟».

انقلبَتْ سُخريتُهُمْ هذهِ إلى تهْديد... ووَعيد...، حتّى أنَّ أحدَهُمْ أمْسَكَ بي يَهزُّني ويقولُ: أيُّها المستهْترُ المنْحُوس... لا مكانَ لكَ هُنا...

ففزعْتُ منهُمْ ومنْ مقابَلَتِهِمْ، وأخذْتُ أتقهْقرُ إلى الوَراء... وانطلقْتُ أعْدُو نحوَ الْقَصْر وأنا أرتجِفُ...، وأغلقْتُ البابَ خَلْفي، وجلسْتُ حزيناً مهموماً، وقد هدَّني التَعبُ...

ثُمَّ استلقيْتُ علىَ فِراشي، واستسلَمْتُ لِلنَّوْم.

وصَحوْت فزِعاً على طَرَقاتٍ شديدةٍ، وانْتابَني ذُعْرٌ وَخوْفٌ مِنْ أنْ يكونَ الطارقَ أحدُ الذينَ قابلْتُهُم وقدْ جاءَ في إثْري ليخرِجَني منَ الْقَصْر... منْ بَيْتي...، ويطرُدَني منَ المدينة؛ هكذا كانَ تصوُّري وخَيالي..

فجلسْتُ حائراً لا أدْري ماذا أفْعلُ...، وآزدادَ الطرقُ عُنْفاً ممّا جَعَلَ خوْفي ينقلبُ غضَباً، وقررْتُ أنْ أفتحَ البابَ.. واندفعْتُ نحوَهُ وفتحْتُهُ بقُوَّة.

وما أن رَأيتُ الواقفَ عندَهُ حتّى خارَتْ قُوايَ...، وانهمَرَ الدمْعُ منْ عيْنيَّ وتخاذلَتْ قدمايَ، وكدْتُ أسقطُ على الأرض، لوْلا أنْ أمسكَتْ بي يدُ الرجُلِ الطيِّبِ، صديقِ والدِي، فقدْ عرَفَ ما حدَثَ لي معَ التجّارِ، فسعَى إليَّ ليخفِّفَ عنّي.

ـ لا تحزَنْ يا ولَدِي ولا تيْأسْ. . ، واعلَمْ أنَّ الإنسانَ إذا ضاقَ بهِ العيشُ وتعذَّرَ عليهِ الرزقُ في مكانٍ ما، فلْيَذْهبْ إلى مكانٍ آخَرَ. . وبلادُ آللّهِ واسِعَة. . .

سأتركُكَ الآنَ لتستريحَ، على أنْ تحْضُرَ إليَّ غداً. . .

ثمَّ ودَّعَني وانصرَفَ، وعُدْتُ إلى فِراشي.

وفي صباحِ اليومِ التالي ذهبتُ إلى مَتْجَرِ الرَّجُلِ فوجدْتُهُ بانتظاري، ولَقِيَني مُرَحِّباً مُبتسِماً، وبعدَ أنْ ضَمَّنا المجلِسُ قالَ لي:

ـ حينَ علمتُ ما حدثَ لكَ مَعَ التجَّارِ، وأنَّهُمْ لا يرغبُونَ في وجودِكَ بينَهُمْ في السُّوق. . ، فكَّرتُ كثيراً في أمْرِكَ وهدَاني تفكيري إلى أنْ تَبْدأ حياتَك وعملَكَ في مدينةٍ أُخْرى، غيرِ «بغداد». . .

فقلت مُنْدَهِشاً مُسْتَغْرِباً:

ـ يا سيِّدِي، ما تركْتُ «بغداد» إلى غيرِها في السابقِ قطّ، فكيْفَ أفْعَلُ ذلكَ الآنَ؟.

فأجابَني:

ـ إنَّ «بغداد» كغيْرِها من المُدُنِ. . .، والرِّزْقُ في كُلِّ مكانٍ. . . وأرض آللّه واسعة. . .، إذهبْ وآشْتَرِ عَشرة جمالٍ وعُدْ إليّ. . .

فتركتُه وأنا في حَيْرةٍ من أمْري، وفي دَهْشةٍ من مطلَبِهِ، وذهبتُ إلى سوقِ الجِمالِ فاشتريْتُ عَشَرَةً مِنها، وعُدْتُ إليهِ لأجدَهُ قدْ جهَّزَ لي أمتعةً، وحَزَم أحمالاً، فأمرَ غلمانَهُ أنْ يضَعُوها على ظَهْرِ الجِمَال. . . ففعَلوا. . ، ثم ناولَني صُرَّةً أُخْرى مِنَ المالِ قائلاً: «وهذه أَلْفُ دينارٍ أخرى إجعلْها مَعَك لتُعِينَكَ في سَفرِك. .»، فقلتُ: «يا سيِّدي لا يَزالُ مَعي بقيَّةٌ كافيةٌ مِنَ المالِ الذي أخذتُهُ منْكَ بالأمْس. .، ويكْفيني ما سآخذُهُ من أحْمال. . .»، فقالَ: «خُذْ ما أعطيكَ إيّاهُ. . .، وهُوَ مِنْ بَعْضِ فَضْلِ والدِكَ عليَّ. .، ولَسوْفَ تردُّهُ لِي حينَ تعودُ غانِماً موْفورَ الربْحِ والرِّزْقِ إن شاءَ آللّهُ تعالى. . .، ورُبَّما يطولُ بكَ الغيابُ وتنتقلُ منْ بلدٍ إلى آخرَ أوْ تُرغمُكَ الظروفُ على بيْعِ تجارتِكَ بثمنٍ

بخس . . . ، توكّلْ على ٱللّهِ يا بُنيَّ ، وٱجعلِ الصِّدْقَ والأمانةَ مبدأَكَ في التجارَةِ . . . وٱللّهُ يُوَفِّقكَ» .

وبعْدَ وداعٍ حارٍّ غلبتْني فيهِ الدمُوعُ . . . ، خرجْتُ بالجمالِ وحمولتِها إلى حيثُ تتجمَّعُ القوافلُ المسافرةُ ، المنطلقةُ يوميّاً إلى مُخْتلفِ الجهاتِ . . .

كانتْ إحداهَا تتأهَّبُ للرحيلِ إلى مدينةِ «البصْرة» فٱنضممْتُ إليْها ، وَسِرْنا من دَرْبٍ إلى دَرْبٍ حتّى أصبحْنَا بَيْنَ أحضانِ المروجِ الخضْراءِ . . . ، ثمَّ ٱستقبلَتْنا الصحراءُ برمالِها وكُثْبانِها واحْتَوتْنا في جوْفِها ، وغابَتْ عنْ أعْيُنِنا مدينةُ «بَغْداد» . . . وغابَتْ مَعَها كلُّ الذكْرياتِ . . ، وأسلمْتُ نَفْسِي للمجْهولِ الّذِي ينتظِرُني .

مالتِ الشمسُ للمغيبِ ، ونحنُ نهتزُّ ونتمايَلُ فوقَ ظهورِ الجمالِ ، وهي تَغِذُّ السَّيْرَ فَوْقَ الرمالِ ، يحثُّها صوْتُ الحادِي بأنْغامِهِ الشجيّةِ وصوْته العذْبِ ، حتّى تَبدَّدَ مَعَ غروبِ الشَّمْسِ آخِرُ ضوْءٍ للنَّهارِ . . . ، فَنَادَى قائدُ الركبِ يدعُونَا للتوقُّفِ ، فاستجابَ الجميعُ . . ، وأَنَخْنَا الجِمالَ وأنزلْنا الأحْمالَ ، وأقمْنا ليلَتَنا في هذا المَكانِ .

وتجمَّعَ المسافرونَ والتجارُ في حَلَقاتٍ يتجاذبونَ أطْرافَ الأحاديثِ ويَسْمَرُونَ ، حتّى ٱسْتَسْلمُوا أخيراً للرُّقادِ . . . يُريحونَ أجسادَهُمْ مِنْ عَناءِ يَوْمٍ طويلٍ شاقٍّ .

جَلَسْتُ وَحْدِي وقدْ ذهبَ النومُ عنِّي ، وداهمتْني أفكارٌ كُلُّها خوفٌ مِنَ الغدِ الجديدِ . . والعالَمِ المجهولِ . . . والحياةِ التي لمْ أعهدْها مِنْ قبْلُ . . ، وتذكرتُ حياتي . . واسترجعْتُ ماضِي أيّامِي . . ما بَيْنَ لهْوٍ وعَبَثٍ . . ، وثراءٍ وتَبْذيرٍ . . ، ثُمَّ فقْرٍ وشقاءٍ وجوعٍ . . ، وندمْتُ على ما فرَّطْتُ وضيَّعْتُ . . ، ثُمَّ استلقيْتُ وٱستسلمْتُ لِلنَّوْمِ وتوكَّلْتُ على ٱللّه .

انطلقَ رَكْبُنا مرَّةً أُخْرى مَعَ بزوغِ الفجْرِ ، وظَلَلْنا في سَيْرِنا حتّى غربَتِ الشمسُ ، فأَقَمْنا في مكانٍ بجوارِ نَبْعٍ للماءِ . . . يُظلِّلُهُ النَّخيـلُ .

وفي صباحِ اليومِ التالِي واصلْنا السَّيْرَ . . .

وبقينا على هذهِ الحالِ عدَّةَ أيّامٍ ، إلى أنْ لاحَ لنَا البَحْرُ عنْ بُعْدٍ ، بلوْنِهِ الأزرقِ ،

ولفحتْنا نسماتُه العليلَةُ، فأنعشتْ نُفوسَنا المُتْعَبَةَ، وأجسادَنا المُنْهَكَة. . .

وما هيَ إلّا ساعةٌ حتّى كانَ سيْرُنا بمحاذاةِ الشّاطىءِ، ومُرِرْتُ لمَنْظَرِ البْحرِ الّذي كنتُ أراهُ للمرّةِ الأُولى في حَياتي. . ، والّذي أعْجَبَني آتّساعُهُ وأكْبَرْتُ عظَمَةَ الخالِقِ ـ سُبْحانَهُ ـ.

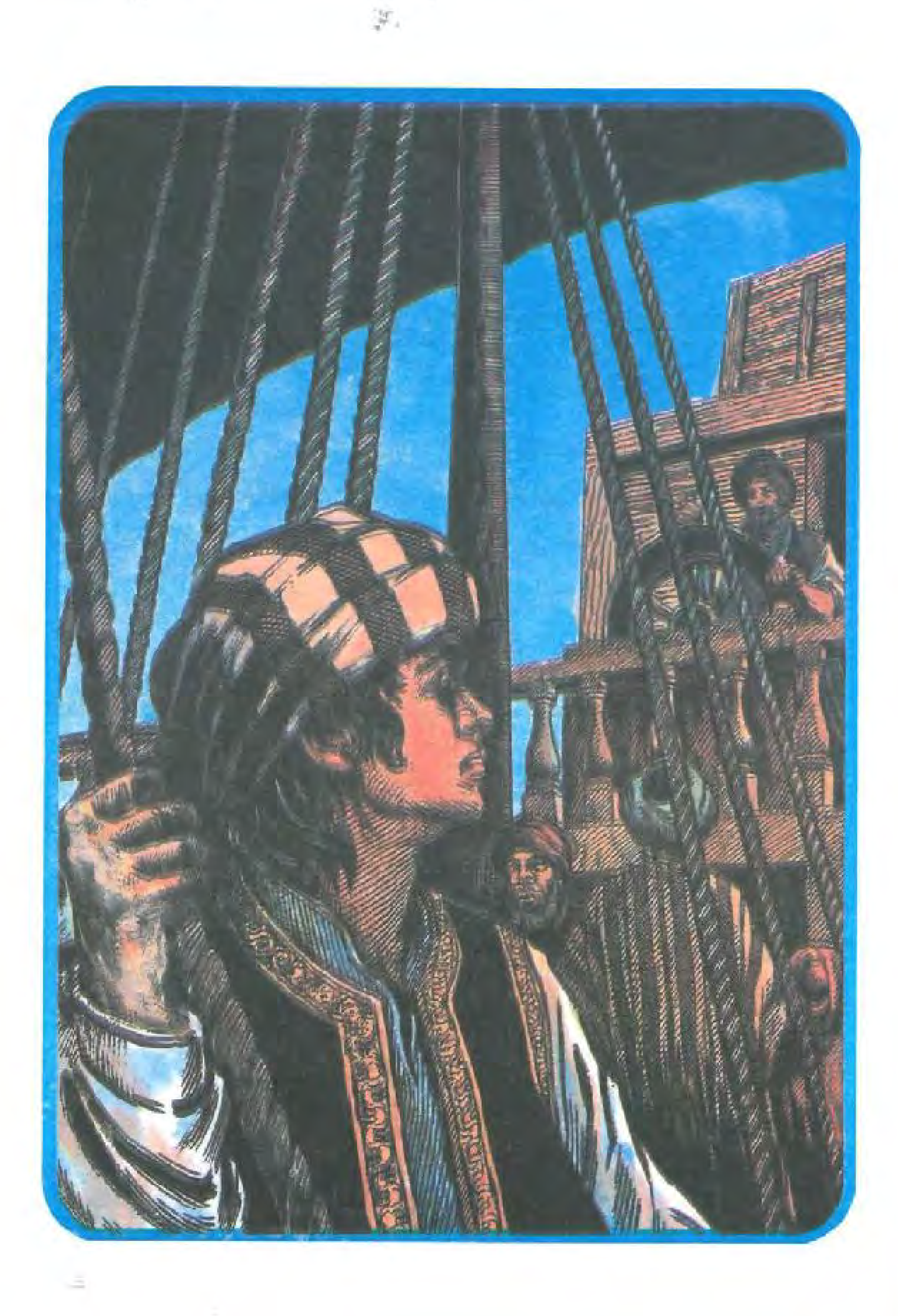
تذكّرتُ الحكاياتِ الّتي كانَ يرْويها لِي والِدِي عنْ رحْلاتِ التُّجّارِ وأسفارِهمْ إلى أعالي البحارِ والمحيطاتِ. . . ، ومنْ خِلالِ خيالِي الطفوليّ كنتُ أتمنّى أنْ أكونَ واحداً منْهُمْ.

بَدَتْ لي مدينةُ «البصرةِ» شريطاً متّصلاً على ساحلِ البحرِ، أمّا أغلبُ أهلِها فكانُوا منَ البّحارةِ أو الصيّادِينَ. . .

توسّطْنا ساحةً كبيرةً تتجمّعُ فيها كُلُّ القوافِلِ. . ، فجلسْنا نستريحُ منْ عناءِ الرِّحلةِ الشاقّةِ. . ، وأتانا بائعُو الطعامِ والحلوى، فآشتريْتُ حاجَتي منهُمْ، وأكلتُ حتّى شَبِعْتُ، وشَعرْتُ بِرَغْبةٍ في النّوْمِ، فآتّجهْتُ إلى نُزُلٍ يُسمُّونهُ (الخَانَ)، قائمٍ في السّاحةِ نفسِها، فآستأْجَرْتُ غرفةً للمَبيتِ فيها حتّى الصباحِ. . وتركْتُ جِمالي وأحْمالي في حِمايةِ حَرَسِ القافلةِ.

وفي الصّباحِ شاهَدتُ جماعةَ الرِّفاقِ في القافلةِ، النازلِينَ مَعِي في «الخَانِ» يتناولونَ طعامَ الإفْطار. . . ، فجلستُ معهم. . ؛ وسمعتُهُم يتحدثونَ عن المرْكبِ الّذي سيرحلُونَ عَلَيْهِ، فسألْتُ واحداً منهم عنْ وجْهَتِهِمْ، فقالَ لي بأنهُمْ يجوبونَ البحارَ لعدّةِ شهورٍ، يتنقّلُونَ فيها مِنْ بلدٍ إلى بلدٍ، يبيعونَ ويشترونَ ثمّ يعودونَ بما قَسَمَ آللّهُ لهُمْ مِنْ رِبْحٍ وكَسْب. . .

فسألْتُهُ إذا كانَ يُمْكِنُني أنْ أنْضمَّ إليْهِمْ. . ، فأجابَ بالإيجابِ ولكنْ بعدَ أنْ أتفِقَ مَعَ قُبْطانِ المَرْكب. . ، فتوجّهْتُ على الْفَوْرِ إلى الميناءِ. . ، فرأيْتُ سفينةً كبيرةً والبَحّارةُ فَوْقَها في حركةٍ دائبَةٍ، والقبطانُ يوجّهُهُمْ ويُرْشِدُهُمْ. . .



فاقْتَرَبْتُ منهُ، وسلَّمْتُ عَلَيْهِ، وأَخْبرْتُهُ عنْ رغبتي في الرحيلِ معَهُ على سفينتِهِ..، فوافَقَ وطلبَ إليَّ أن أُسْرِعَ بِنَقْلِ أحْمالي إلى المرْكَبِ، فتوجَّهْتُ على الفورِ إلى السَّاحة... ونَقَلْتُ كُلَّ شَيْءٍ إلى السفينةِ وبِعْتُ الجِمَال...، ووَقَفْتُ فَوْقَ سطحِ السفينةِ أَمْسَحُ عَرَقي وأنتظرُ مَعَ بقيَّةِ المسافرينَ هُبوبَ الرِّيحِ لِتُقْلِع...

وعلمْتُ من القُبْطانِ أنَّ رِحلَتنا ستكُونُ طويلةً جِداً نزورُ خلالَها عِدَّةَ بلدانٍ وشَوَاطِئ..، وعلَى الرُّغْمِ مِنْ أنَّني كُنْتُ سَعيداً لِرَحيلي إلاَّ أنَّني كُنْتُ أُحِسُّ بشَيْءٍ من الرَّهْبَةِ في داخِلي لا أعرفُ لَها سَبَباً.

ربَّما لأنَّني أسافِرُ في البَحْرِ للمرَّةِ الأُولى...، أو رُبَما كُنْتُ أخْشى المجهولَ...، ولكنّي في النهاية أجِدُني مشدوداً إلى السَّفَرِ غيرَ عابِىءٍ بمَا يُمْكِنُ أنْ يحدُثَ...، فلَطالما تمَنَّيْتُ هذا في صِغَري..، واليومَ تتحقَّقُ الأماني.

كان بعضُ التجَّارِ ما يزالونَ يتوافدُونَ إلى السفينةِ؛ والبحّارةُ ما يزالونَ ينقلونَ البضائعَ، والقُبْطانُ يستحثُّهُمْ أن يُسْرِعُوا قَبْلَ غِيَابِ الشَّمْسِ.

وما كادتِ الشمسُ تتوارَى بالحِجَابِ، وتغيبُ وراءَ الأُفُقِ، حتَّى واتَتنا الرياحُ بما تَشْتَهي السَّفينة...

ونادَى القبطانُ على البحّارةِ أن يرفَعُوا المرْساةَ وينشُروا القِلاعَ، فأسْرَعَ البحّارةُ هُنا وهناكَ يشدّونَ الصّواريَ ويجْذبُونَ الحِبَالَ...

وتحرّكتِ السفينةُ في بُطْءٍ وهُدوءٍ... ثم تحوَّلَتْ عنِ الميناءِ إلى جَوْفِ البحرِ الواسع، فوقفْتُ أرْقُبُ مدينةَ «البصرة» وهِيَ تَبْتعدُ رُوَيْداً رُوَيْداً عنِ الأنظارِ بأضوائها الخافتة... وتختفي بالتّدرُّجِ، إلى أنْ غابَتْ نهائياً..، فحوّلْتُ بَصري عنْها إلى الأُفُقِ...، حَيْثُ المجهولُ؛ وتساءلْتُ فيما بيْني وبيْنَ نَفْسي عنِ اليوْمِ الذي يُمْكِنُ أنْ أعودَ فيهِ إلى البَرِّ... إلى الأرض!

صحوْتُ في صباحِ اليوْمِ التالي على نهارٍ مُشْرِق، وريحٍ رُخاءٍ طيِّبَةٍ، وجلسْتُ مَعَ رفاقِ الرِّحلةِ نتحدَّثُ، وكانَ كلٌّ مِنَ المسافرينَ يحْكي قصَّتَهُ، حتّى حانَ وقْتُ الغروبِ، فتحوَّلتْ زُرقةُ المياهِ إلى حُمْرةٍ أُرْجوانيَّةٍ. . ، ثمَّ هبطَ الظلامُ ليجعلَ منْ هذا البحْرِ الممتدِّ عملاقاً غامضاً مهيباً. . ، وتناثرتِ النجومُ في السماءِ مضيئةً يسترشدُ بها الملاَّحونَ، وأوى كُلٌّ مِنّا إلى فِرَاشِه.

مرَّتْ أيامٌ كثيرةٌ. . ، بلْ أسابيعُ عديدةٌ، ونحنُ على هذهِ الحالِ، وفي غايةِ السعادةِ لا يُعكِّرُ علينا صَفْوَ رحلتِنا شيْءٌ منْ أخطارِ البِحَار.

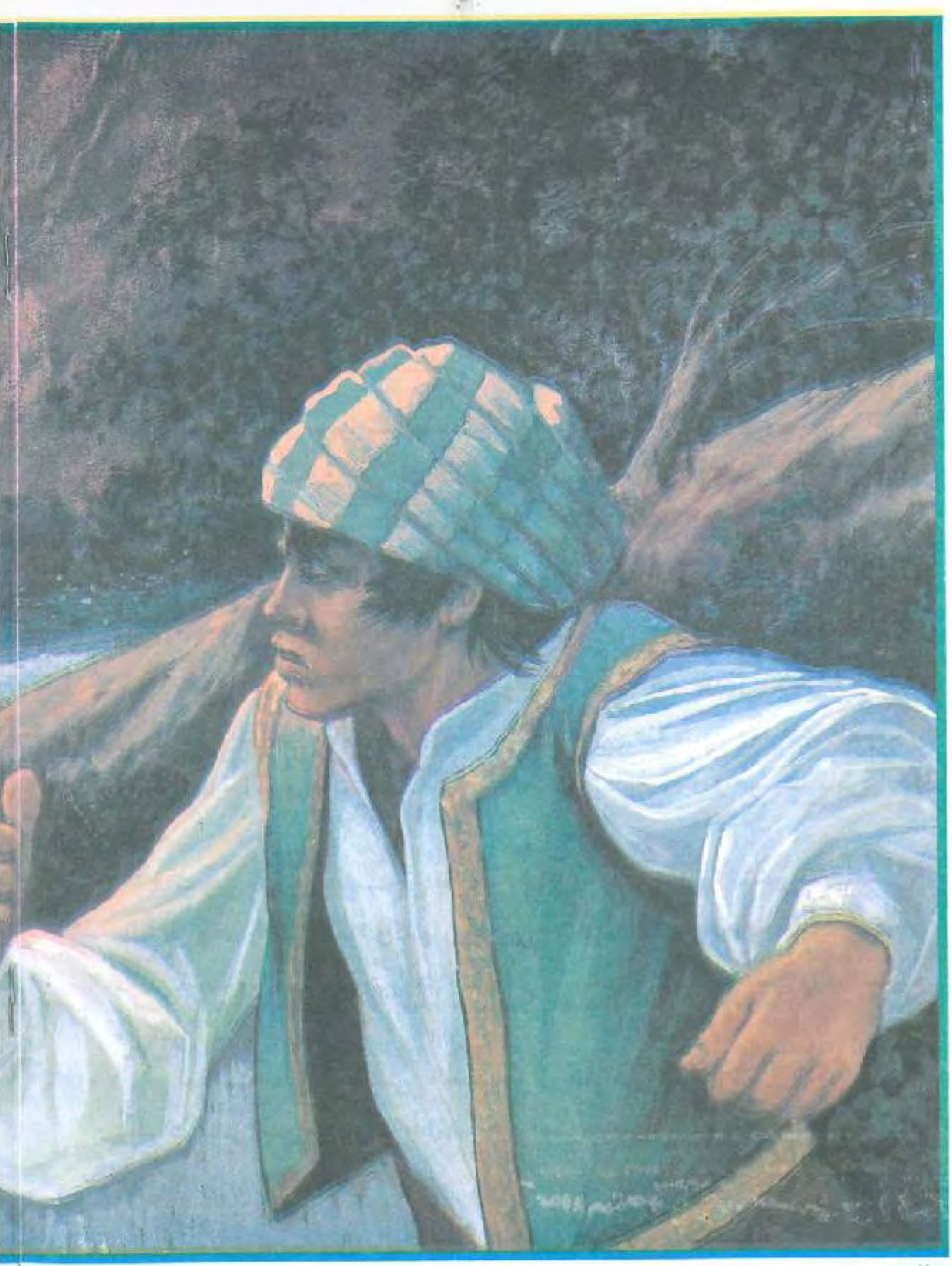
ثمَّ لاحتْ لنا جزيرةٌ شاهدناها عنْ بُعْدٍ، مكسوَّةٌ بالغاباتِ، خضراءُ نَضِرةٌ، كأنَّها زُمرُّدةٌ تزيِّنُ ثوْباً أزْرَقَ. . . ، ففرحْنا لرؤْيتِها واستبْشرْنا خَيْراً بوُصولِنا إلى شاطِئها الرَّمْليِّ. . .

نزلْنا إليها، وتجوَّلْنا بين أشجارِها، وأكلْنا من ثمارِها، وشربْنا من مياهِ ينابيعِها وأنهارِها الجاريَةِ. . ، وجمعْنا منْ ثمارِها ما قَدِرْنا على حمْلِه. . .

وعادَ البعضُ إلى الشَّاطئِ حيْثُ سفينتُنا، بيْنما أخذَ البعضُ الآخرُ في السَّيْرِ والتَّجْوال، واكتشافِ مَعَالِمِ الجزيرةِ، وكُنْتُ واحداً منْ هؤلاءِ. . ، وانْفرَدْتُ عَنْهم. . ، وأنا في غايةِ السرورِ والمُتـعَة. . ، مأخوذاً بجمَالِ الطبيعَةِ. . ، وأحسسْتُ كأنَّني أنْعَمُ بالجنَّة. . .

شعرْتُ بالتَّعبِ فجلستُ في ظِلِّ شجرةٍ تدلَّتْ ثمارُها، كأنَّها القناديلُ المعلَّقةُ. . ، طلباً للراحَة، وقطفْتُ ثمرةً وأكلْتُها، أعجبَني مذاقُها اللذيذُ، وطعمُها الطيِّبُ الشهيُّ، فأخذتُ ثانيةً وثالثةً. . . ، حتّى امتلأتْ مَعِدَتي وأحسسْتُ ثِقْلاً في جُفوني ورغبَةً شديدةً في النَّوْم. . .

استلقيْتُ على الحشائشِ الخضراءِ، ورُحْتُ في سُباتٍ عميق؛ ولكنْ. . . لا أعْلمُ كمْ مضى عليَّ منَ الوقتِ وأنا نائمٌ حينَ قُمْتُ مَذْعُوراً على صَوْتِ قَرْقعةٍ مُدَوِّيةٍ. . . الأشجار تهْوي إلى الأرْض!!!





والأرضُ تهتزُّ مِنْ تَحْتي وتضطَرِبُ!!!، وتَنْشَقُّ فَتَبْتلِعُ ما فوْقَها!!!.
ماذا حَدَثَ؟

نَظَرْتُ هُنا وهُناكَ، فرأيْتُ عنْ بُعْدٍ لهيبَ نيرانٍ تتصاعدُ في الجوِّ من فوْهةِ بُرْكانٍ عندَ قِمَّةِ جَبَلٍ عالٍ، والْحِمَمُ تَتَحدَّرُ منه فَتجرُفُ كُلَّ ما في طريقِها...

فقُمْتُ أركضُ وأعْدُو نَحْوَ الشاطئِ ورِجْلايَ تسابقانِ الريحَ منَ الذُّعْرِ. وسَقَطْتُ أرْضاً أكثرَ مِنْ مرَّةٍ...

فلما بَلَغْتُ الشاطئَ، كانتِ السَّفينةُ قدْ رَفَعَتْ أشْرِعَتَها وسَارَتْ بِمَنْ فيها وعليْها إلى عُرْضِ الْبَحْرِ...

أَلْقَيْتُ بِنَفْسي إلى الماءِ وأنا لا أعْرفُ السِّباحةَ والْعَوْمَ..، فتعلَّقْتُ بشجرةٍ ضَخْمةٍ طافيةٍ على سَطْحِ الماءِ، وتَشبَّثْتُ بها حتَّى كلَّتْ يَدايَ، وفَقَدْتُ الإحساسَ بِبَدَني وخِفْتُ على نَفْسي فَظَلَلْتُ أُجاهدُ حتَّى آرتفعْتُ فَوْقَها، وقعدْتُ متمكِّناً بَيْنَ أغصانِها المتشابكةِ المثْقلةِ بالثِّمارِ...

لم تكُنْ لي رغبةٌ بالطعامِ، أو إحساسٌ بالجوعِ، إنَّما كانَ يُسيطرُ عليَّ الخوْفُ والهلَعُ من المَصيرِ المجهولِ....

ومضتْ ساعاتُ اللَّيْلِ كأنَّها دَهْرٌ يتطاوَلُ، حتَّى لاحتْ أنوارُ الفَجْرِ، ثمَّ أشرقَتِ الشمسُ فبعثَتِ الدفْءَ في بَدَني الَّذي كادَ يتجمَّدُ...

وتناوَلْتُ مِنْ ثَمَرِ الشَّجَرةِ فأكلْتُ حتَّى شبعْتُ...

مَضَى النهارُ بكامِلِهِ وأنا على هذهِ الحالِ، وأقبلَ اللَّيْلُ... ومَعَهُ الرهْبةُ والخوْفُ، والبرْدُ الشَّديد...، وحدَّثَتْني نَفْسي أنِّي هالِكٌ لا مَحالَةَ...، فسلَّمْتُ أمْري إلى آللهِ يفعلُ مَا يَشاء.

حاولْتُ أنْ أنامَ... لكنَّ لسعاتِ الهواءِ البارِدِ كانَتْ أقْوى مِنْ رغْبتي...، وتحوّلَ الهواءُ إلى ريحٍ مُزَمْجِرَةٍ عاتيةٍ، وآرتفعَتْ أمْواجُ الْبَحْرِ كأنها الجبالُ، وصِرْتُ أنا

والشجرةَ قطعةً واحدةً مِنْ شِدّة تعلُّقِي بِها.

كُنا نرتفعُ حيناً ونهبطُ حيناً آخرَ، ورُحْتُ في غَيْبُوبة...

وَأحْسَسْتُ أني أسْبَحُ في ظَلام... لا أرى ولا أسْمعُ شيْئاً، كُلُّ ما أُحِسُّهُ أنّي أهْوِي منْ أعْلَى إلى أسْفل...

ويبدُو أنّني انتهيْتُ إلى قاعِ البَحْر...

فها هِيَ الرمالُ تلامِسُ جَسَدِي. رغْمَ أنّ جسدي لا يُحِسُّها... أُحِسُّها بِرُوحي... بِأنْفاسي...

إني حقاً فَوْق الرِّمال... أرقُدُ عَلَى الشّاطىء...

الحمْدُ لِلّه على أني ما زِلْتُ حيّاً..، لقد نَجَوْتُ..، إنّها الحياة!!.

لقد ألْقَتْ بِيَ الأمْواجُ علَى شاطىء...، فشُكْراً لله...

لكنّني مُنْهكُ القِوَى، أرتعِدُ من البَرْدِ، ولا أقْوَى على الحَرَكَة، فهلْ نَجوتُ من الغَرق لأموتَ منَ البرْدِ والتّعب...

!!!، لا بُدَّ أن أقاوِمَ وأتحمَّلَ، وأتجلَّد...

استجمعْتُ قوايَ، وأخذتُ أزحَفُ فوقَ الرِّمالِ حتّى وصَلْتُ إلى صخرةٍ كبيرةٍ، واَحْتميْتُ خلْفَها من البرْدِ القارسِ، لكنّ ملابِسِي المُبْتَلَة كانتْ أكثرَ مِنْ أنْ أتحمَّلَها، فخلعْتُها وجَلَسْتُ عارياً...

وظلِلْتُ أرتجِفُ حتّى شعرتُ بأنّ أنفاسِي تكادُ تذهَبُ عنّي والموْتُ يَقْتربُ مِنّي...، فتركْتُ مكاني وقُمْتُ أعدو على الشاطىءِ بما بقيَ لَديَّ منْ قُوّة...

فجرى الدَّمُ في عُروقي...

وجمعْتُ بعْضَ الأعشابِ والأغصانِ اليابسةِ وجعلْتُها حوْلَ جَسَدي أتّقي بهَا شَرَّ البَرْد، وبعدَ فترةٍ منَ الوقْتِ كانَتْ ملابِسي قدْ جَفّتْ..، فارتديْتُها وتوسَّدْتُ الأعْشابَ، واستسلَمْتُ لِلنّوم..

لمْ أدْرِ كَمْ منَ الساعاتِ، أو الأيّامِ مضتْ عليَّ وأنا نائمٌ. . .، واستيقظْتُ جائعاً، فقُمْتُ أتجوَّلُ في الجزيرةِ، أَقْطِفُ من ثِمارِ أشجارِها وآكُل، ورأيْتُ رَبْوَةً عاليةً فصعدْتُ عليها وألقيْتُ نظرةً على الجزيرة. . .، كانتْ صغيرةَ المساحة تتناثَرُ حَوْلَها جُزُرٌ عديدةٌ أصْغَرُ منها. .، وظَهرتْ لي عن بُعْدٍ أرضٌ كبيرةٌ لا يَصِلُ النَّظَرُ إلى آخِرِها، ولا يُحيطُ بها. . .، ولكنْ لا سبيلَ لبلوغِها، فجلستُ في مكاني أُفكِّرُ في حالي. . .، وكيْفَ أقْضي بقيَّةَ عُمْري في هذهِ العُزْلَةِ فوقَ أرضِ هذهِ الجزيرةِ الخاليةِ. . لا رفيقَ ولا أنيسَ. . . ولا خلاص. .

تركْتُ مكاني، وأخَذْتُ أجُولُ في الجزيرة مرَّةً أُخْرى. . .، وحَمَدْتُ آللَّهَ على أنّني لَنْ أموتَ منَ العَطَشِ، إذْ صادفْتُ نهراً صغيراً جارياً، تَمْرحُ في مياهِه بعضُ الأسماك، بأحجامٍ مختلفَةٍ. . آمنةً مطمئنّةً. . .

تناوَلْتُ غُصْنَ شجرةٍ وعالجْتُ أحَدَ طرفيْهِ بخِنْجَري فصارَ مُدَبّباً كأنَّه رأسُ حربَةٍ أعانتْني في صيْدِ سمكتيْنِ كبيرتيْنِ. .، ثُمَّ جَمَعْتُ عُشباً جافاً أشْعَلْتُهُ بِحَجَرَيْنِ مِنَ الصَّوّان، ثم شَوَيْتُ السمكتَيْنِ. .، وتناولتُ غَداءً شهيّاً، وشَرِبْتُ ماءً عَذْباً سائغاً.

مرَّتْ عليَّ أيامٌ وأنا في الجزيرةِ وحْدي، أنْعمُ بخيْراتها. .، ولَمْ يَعُدْ ما يؤرِّقُني سِوى وَحْدَتي. .

وكثيراً ما كُنْتُ أدْعُو آللَّهَ أن يَمُرَّ مركبٌ فيلتَقِطُني، ويحمِلُني إلى أيِّ مكانٍ. . . غير هذهِ الجزيرةِ النائيةِ، الخاويةِ المُوحِشَةِ. . .

جلستُ ذاتَ يَوْمٍ على الشاطىءِ أرْقبُ غروبَ الشَّمْسِ، فحَمَلَ النَّسيمُ إليَّ أصْواتاً صادِرَةً عنْ بُعْد. . كأنَّها غِناء. . .، فظَنَنْتُ أوّلَ الأمْرِ أنّني أتوهَّم. . .، ثمّ أَصْخْتُ سَمْعِي وأُذُنيَّ. . .، وجلْتُ ببَصَري نَحْو الأفُقِ البعيدِ مختَرِقاً الظلامَ الدامسَ الّذي هَبَطَ. .، فلَمْ أتبيَّنْ شيْئاً. . .

لكنْ. . ها هيَ الأصْواتُ بدأتْ تقتربُ وتتَضِحُ. . .، وهيَ أقْربُ إلى الصُّراخِ والعويلِ، وتعلَّقتْ عيناي وحواسِّي كلُّها ناحيةَ مَصْدَرِ الصَّوْتِ، فشاهَدْتُ ضَوْءاً خافتاً ضعيفاً يظهر تارةً ويَخْتَفِي أُخْرى. . .

ثم وضَحَ كلُّ شيْءٍ. . .

كانَ هناكَ بضعةُ قوارِبَ، عليها بعضُ المشاعِلِ تتَّجِهُ إلى الجزيرةِ. . . فغمرَتْني السعادةُ وملأتْ كَياني، وصرْتُ أقْفِزُ في الهواء فَرَحاً وأُشيرُ لمنْ فِي القواربِ. .، رغمَ أنَّهُمْ لا يزالونَ على بُعْدٍ بعيدٍ مِنِّي. .، وكيْفَ يَرَوْنني في هَذا الظَّلَامِ!؟.

ثم تراجعْتُ عنْ كُلِ ما صَدرَ مِنِّي وآعتراني الْخَوْف. . .، فلعلَّ أصحابَ القواربِ منَ القراصِنَةِ، أو منْ سكانِ جزيرةٍ أُخرى قريبةٍ لَنْ يُرضِيَهُمْ وجُودي. . .

قَرَرتُ أن أَخْتفيَ وراءَ الأشجارِ لأتبَيَّنَ حقيقةَ هؤلاءِ القادمينَ، وأعرِفَ مَنْ هُم. . .!.

ولقدْ كُنْتُ مُحِقاً في تصوُّري وحَذَري. . .

فما أنِ اقتربَتِ القواربُ مِنَ الشاطىءِ حتَّى رَأَيْتُ زُنُوجاً يَقْفِزونَ منها، عُراةَ الأجسادِ، غلاظَ الملامحِ، كأنهم الشياطينُ، يُمْسكون بفتاةٍ صغيرةٍ بيضاءَ، جميلةٍ رائعةٍ، يَنْسَدِلُ شعرُها الذهبيُّ الأصْفرُ على كتفيْها فيزيدُها سِحْراً، تَرْتَدي ثَوْباً مزركشاً مُزَخْرفاً. . سابغاً. . يدُلُّ على عَراقةِ أصْلِها وكَريمِ مَحْتِدِها، وأنها مِنْ ذوي النِّعْمَةِ والثَّراء. . .

تبكي وتصرُخ بَيْنَ أَيديهِمْ. . وهُمْ يَجُرُّونَها جَرّاً. . . ويَقْسُونَ علَيْها. . فتذكَّرتُ ما رَواهُ لِي بعضُ التجّارِ عنْ أُناسٍ متوحشينَ مِمَّنْ يأكُلُون لُحُومَ الآدميِّينَ. .، فتألَّمْتُ لمصيرِ الفَتاة. .، وتمنَّيْتُ لَوْ أنَّ في مقدُوري أن أَسْعى لخَلاصِها منْ بَيْنِ أيديهِمْ. .، لكنْ لا حيلةَ لِي أمامَ كَثْرَة عَددِهِمْ ورماحِهِم الَّتي تلْمَعُ رؤوسُها في الظَّلامِ كأنَّها الْبَوارِقُ. .

مَضُوا بالفتاة إلى داخل الجزيرة. . ، فتسلَّلْتُ خلفهم حتى بَلَغُوا تلْكَ الربْوَةَ العاليَةَ، وأزاحُوا صَخْرَةً كبيرةً في أسْفلِها ثمّ ألْقَوا بالفتاةِ داخِلَها، وأعادُوا الصخرةَ إلى مَكَانِها. . ، ووقفُوا يرقصونَ ويهزِجُونَ، ويقفزُونَ في الهَواءِ، وبعد أن انتهَوْا مِنْ لَهْوِهِمْ. . . عادُوا إلى قَوارِبِهِمْ، ورَجَعُوا مِنْ حيْثُ أتَوْا.

خرجْتُ منْ مَخبَئِي وأتيْتُ الصَّخْرَةَ، وجاهَدْتُ في زَحْزَحَتِها مِنْ مكانِها، وتمكّنْتُ منْ ذلكَ بَعْدَ جُهُودٍ مُضْنِيَةٍ. . . ودخلْتُ. . .

كانتِ الفتاةُ المسكينةُ مُسْتَلْقِيَةً علَى الأرْضِ، كأنَّها المَلاكُ في ثوْبِها الأبْيضِ الناصعِ، وبراءَةِ وَجْهِها. .

لقَدْ كانَتْ في غَيْبُوبَةٍ. . . فانحنيْتُ عليْها، وأخذْتُ رأسَها الصغيرَ بيْنَ يديَّ، وربَّتُّ بلطْفٍ على وَجْنَتَيْها، وهَزَزْتُها هَزّاً خفيفاً. . .

وعِنْدَمَا فَتَحتْ عَيْنَيْها ونظرَتْ إليَّ عادَتْ إلى الصُّراخِ والبُكاءِ ثانيةً. . ، تُنادي أباها وأُمَّها. . ، فلاطَفْتُها وهَدَّأْتُ رَوْعَها وطَمْأَنْتُها، وقلتُ لها: «لا تَجْزَعي يا صغيرَتي، فلَسْتُ أريدُ بِكِ شَرّاً، إنَّما جِئْتُ لإنقاذِكِ. . .».

فاطمأنَّتْ لِكلامي، خصوصاً بعْدَ أن تَفَحَّصت هيئَتِي الّتي تختلفُ عن وجُوهِ خاطِفِيها، وكذلِكَ الكلامَ، وطريقةَ المُعَامَلَةِ. . .، وسألَتْني بسذاجَةٍ وبَراءَةٍ:

- هلْ سَتَذْهَبُ بِي إلى أبِي وأُمّي. . ؟

فقُلْتُ: - نعمْ، ولكنْ مَنْ أبُوكِ؟ وأيْنَ هُوَ؟

قالت: - إنَّ أبي مَلِكٌ على بلدٍ كبيرٍ. . .

فقُلْتُ: - وكيْفَ وَقَعْتِ في يَدِ هؤُلاءِ الأشْرارِ؟

قالت: «لا أدْري. . ، كلُّ ما أذكرُهُ أنّي كُنتُ ألْعَبُ في حديقَةِ القصرِ بحراسةِ خادمٍ مِنَ السُّود. . .

حَمَلني بَيْنَ ذراعيْهِ بعْدَ أنْ وضعَ كَفَّهُ على أنْفِي وفَمي ، فلمْ أشْعُرْ إلا وأنا بَيْنَ جماعةٍ منْ أمثالِهِ في قاربٍ يمْضي بنا في البَحْرِ . . ، أخذتُ أصرخُ وأنادي على أبي وأُمّي ، وكانَ الأشرارُ يقولونَ لي : «لوْلا أنّكِ مِنْ نصيبِ زعيمِنا لقتلْناكِ الآنَ وأكَلْناكِ» .

عندما سمِعْتُ من الفتاةِ قصّتَها ، أدركتُ أنَّ العصابةَ سوفَ تعودُ ، ومعَهُمُ الزّعيمُ .

وتحيَّرْتُ في ما يجِبُ أنْ أفعَلَ ، إذْ ليسَ لي أو للفتاةِ وسيلةُ هربٍ أو دفاعٍ في هذهِ الجزيرةِ .

كانَ اللّيْلُ قدْ مضَى ، وبدأ نُورُ الصباحِ يُشرِقُ فأضاءَ الجزيرَةَ . . وانكشَفَتْ لي المغارةُ التي نَحْنُ بداخلِها ، فإذا هيَ مليئةٌ بعظامٍ بشريَّةٍ وجَماجمَ ، وبجوانبِها قُدورٌ وأوانٍ مليئةٌ بالحليِّ والجواهرِ النفيسةِ والأحجارِ الكريمةِ ، وقطعِ النقودِ الذهبيةِ ، فأخذتْني الدهشةُ ، وتعجَّبْتُ مِمّا أرَى ، فكمْ مِنْ ضحيّةٍ قتَلوها ، وكَمْ مِنْ قصرٍ سَرَقُوهُ؟ فإنَّ مثلَ هذهِ الأشياءِ والتُحفِ والكنوزِ لا توجَدُ إلّا في قصورِ الملوكِ والأُمَراءِ . . .

وخرجْتُ مُسْرعاً والفتاةُ مَعي لنكونَ بعيدَيْنِ عنْ هذا المَكانِ ، واتجهْنا إلى مكانٍ آخرَ قريبٍ منَ الشاطئِ ، وأجلستُها متواريةً بينَ الأشجارِ والأغصانِ ، وأحضرتُ لها شيْئاً منَ الثمارِ ، فأخذَتْ تأكلُ بنَهَمٍ لشِدّةِ جُوعِها ، وجلستُ أرقُبُها حزيناً ، بينما تنظرُ إليَّ وتبتسمُ مطمئنّةً لوُجُودي .

ثم غلبَها النعاسُ فنامَتْ ، وأخذتُ أفكّرُ في مَصيري ومصيرِها عندَ عوْدَةِ خاطِفيها ، عاجلاً أمْ آجلاً . . ، ولأوّلِ مرّةٍ لمْ أُحِسَّ بالخوْفِ على نَفْسي ، إنما كانَ خوْفي على هذهِ الفتاةِ البريئةِ . . .

واتّجهْتُ ببصري إلى السماءِ أدْعو اللّهَ تعالى أن يُنقذَنا مِنْ أيْدي أولئكَ الوُحُوشِ . . . ،

وهداني اللّهُ إلى فكرةٍ بعيدةِ التحقيقِ . . ، لكنْ لمْ يكُنْ أمامي سواها .

تركتُ الفتاةَ نائمةً، وأسرعتُ إلى المغارةِ كيْ أعيدَ الصخرةَ إلى مكانِها. . . وأمامَ بابِ المغارةِ دفعني حُبُّ الحياةِ وشهْوةُ المالِ إلى أنْ أدْخلَ وآخذ منْ كنوزِها، فحملتُ ما قدرْتُ عليهِ وخرجْتُ، ثم أعدْتُ الصخرةَ إلى مَكانها.

وأسْرَعْتُ إلى حيْثُ تركتُ الفتاةَ فوجدْتُها ما تزالُ نائمةً. . ، فألقيْتُ بِحمْلِي وخلَعْتُ قميصي ثمّ جعلتُهُ كيساً أوْدَعْتُهُ كلَّ ما مَعي؛ وجلَسْتُ وقَدْ غلبني النعاسُ فنمْتُ نَوْماً مُتقطِّعاً إلى أنْ استيْقظتِ الفتاةُ، وعادَتْ تسْألُني متَى سَأذْهبُ بِها إلى أبيها. . .

فَأجبْتُها بأنّ هذا الأمْرَ سيتِمُّ ليْلاً، تحتَ سِتارِ الظّلامِ، حتّى لا يرانا الزنوجُ الخاطِفُونَ.

ثم سألَتْني عمّا يحْتويهِ الكيسُ الذي بجانبي، فَأخبرتُها بما فيهِ، وبأنَّ هذه الأشياءَ قيِّمةٌ وغاليةُ الثمنِ في بلادي.

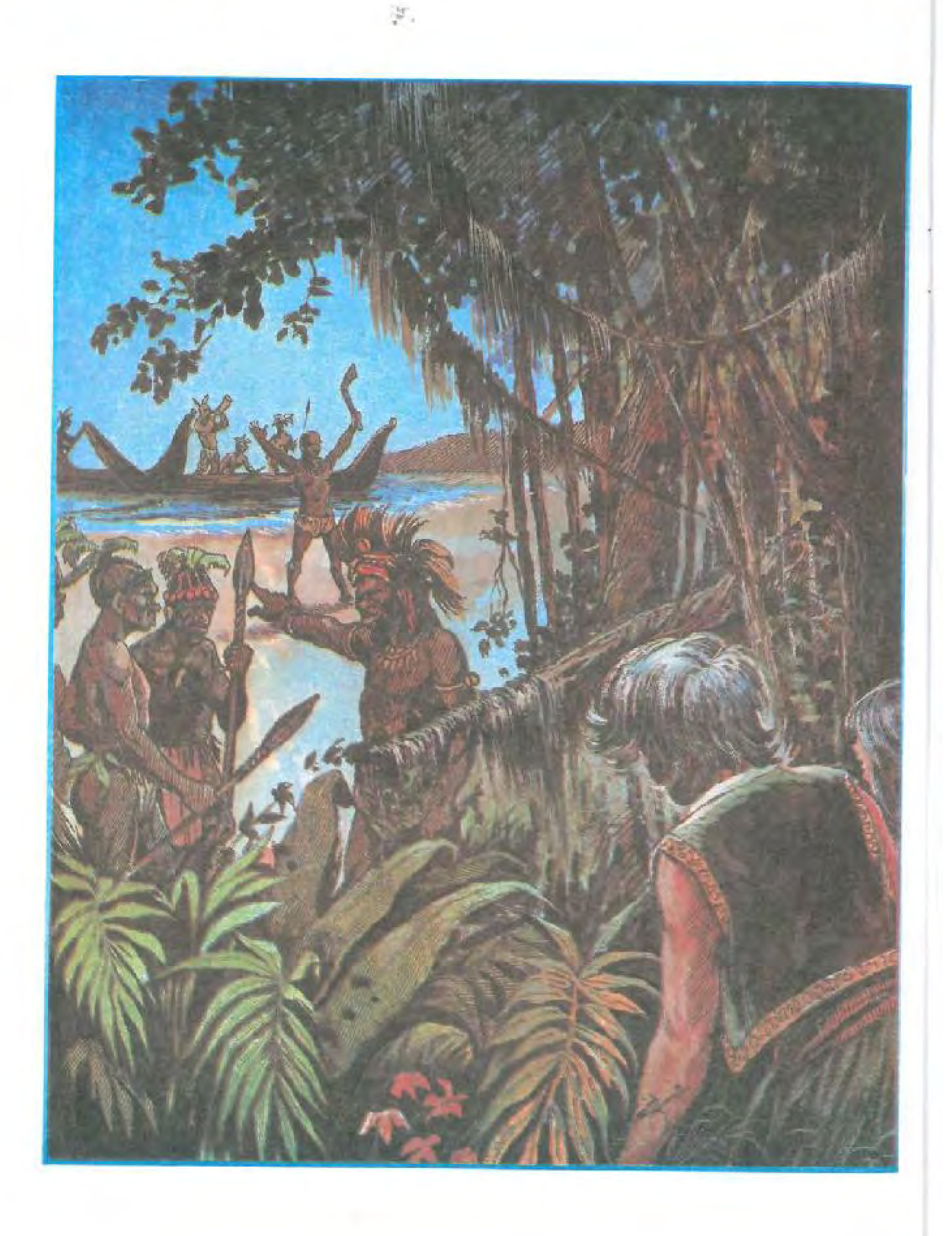
فقالتْ: حينَ تذهبُ بي إلى والدي سيُعْطيكَ منْها الكثيرَ. . ، وكذلك والدتي، ثم أخذتْ تسألُني عنْ بلادي، وعنْ سببِ وجودي في هذهِ الجزيرةِ، فقصصْتُ عليها قِصتي، وحكيْتُ لها حكايتي، وحكاياتٍ أُخْرى أُسَلِّيها بها إلى أن انْقضَى النهارُ. . .

وعِنْدَما حَلَّ الليلُ حَصَلَ ما توقَّعْتُهُ. . .

فقد سمعتُ الغناءَ مِنْ بعيدٍ، ونظرتُ إلى البَحْرِ فرأيْتُ أضواءَ القواربِ وهي تقتربُ نحْوَنا، وانْتابَ الفتاةَ ذُعْرٌ شديدٌ، لكنّي طَمْأنْتُها وأخْبَرْتُها بما عَزَمْتُ عليه، فَسَكَنَتْ وسكنَ رَوْعُها.

وصلَ القاربُ الأوّلُ إلى الشاطىءِ، وكانَ يحمِلُ زعيمَ العصابةِ، ومعَهُ بعضُ الأتْباعِ وهُمْ يُغَنُّونَ ويصرخُونَ بأصْواتٍ مُنْكَرَةٍ. . .

ثُمّ وَصَلَ القارِبُ الثاني وتبِعَهُ الثالثُ، وترجّلَ الجميعُ. . . واتّجهُوا بعيداً عن مَخْبئنا. قُمْتُ منْ فوري مسْرِعاً. . ، فحملْتُ الفتاةَ إلى أحَدِ القواربِ، وعُدْتُ فحملْتُ



الكيسَ بما فيهِ ووضعته مَعَها، بعدَ ذلك. . . ، حللْتُ رِباطَ القاربيْنِ الآخرَيْنِ ودَفعْتُ بهما إلى أبعدِ ما أستطيعُ داخلَ الْبَحْرِ كيْ تجرفَهُما الأمواجُ ويحْمِلَهُما التيّارُ بعيداً عنِ الشّاطىء.

وبعْدَما دفعتُ القاربَ الذي فيهِ الفتاةُ والكيسُ، قَفَزْتُ إلى داخلِهِ وتناولتُ المجذافَ ورُحْتُ أضربُ به في الماء بكلِّ قُوّتي لأَبْتَعِدَ سريعاً عنِ الشاطىء. . .

وفَجْأةً سكَنَتِ الأصْواتُ، فأدركْتُ أنَّ عصابةَ الزنوجِ قَدِ اكتشفتْ هروبَ الفتاةِ، فضاعَفْتُ مِنَ التجذيفِ خَشْيَةَ أنْ يَلْحَقُوا بِنا ويُدْرِكُونا. . .

ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى كانوا يصرخونَ على الشاطىءِ. . . ويَرْمُونَنا بالحراب. . . ، لكنّا كُنّا قدِ ابتعدْنا بما فيه الكِفايةُ وأصْبَحْنا بمأمنٍ. . .

وألْقى بعضُهُمْ بنفسِهِ إلى الماءِ، يُريدُ أنْ يلْحَقَ بنا سباحةً. . . ، لكنْ هَيْهاتَ. . هَيْهاتَ، فَأَيْنَ سُرعَةُ القاربِ بالمجذافِ منَ سرعةِ السّابحينَ. . .

نَجوْنا والحمدُ للّهِ منَ شرِّهِمْ وأذاهم، ولمْ نَعُدْ نراهُمْ. . ، بالإضافةِ إلى عُزْلتِهِمْ في هذهِ الجزيرةِ. . .

ومضيْتُ أضربُ بالمجذافِ على صفحةِ المياهِ. . . وتزداد قُوّتي كُلّما رأيْتُ السعادةَ والفرحةَ علَى وَجْهِ الفتاة. . . ، التي ما كانَتْ لتصدِّقَ أنّها نَجتْ منْ أيدي أولئكَ البرابرةِ المُتَوَحِّشينَ. .

واتّخذْنا سبيلَنا في الْبَحْرِ إلى الأرضِ الكبيرةِ، التي حدَّثْتُكُمْ عَنْها قبْلاً، وهي مملكةُ والدِ الفتاةِ وبلادُه، كما قالتْ وحيْثُ أشارتْ.

وما أن اقتربْنا من الشاطىءِ حتّى لاحتْ لنا معالِمُ مدينةٍ كبيرةٍ، عامرةٍ بالأبْنِيةِ الضّخمَةِ والقصورِ الشاهقة.

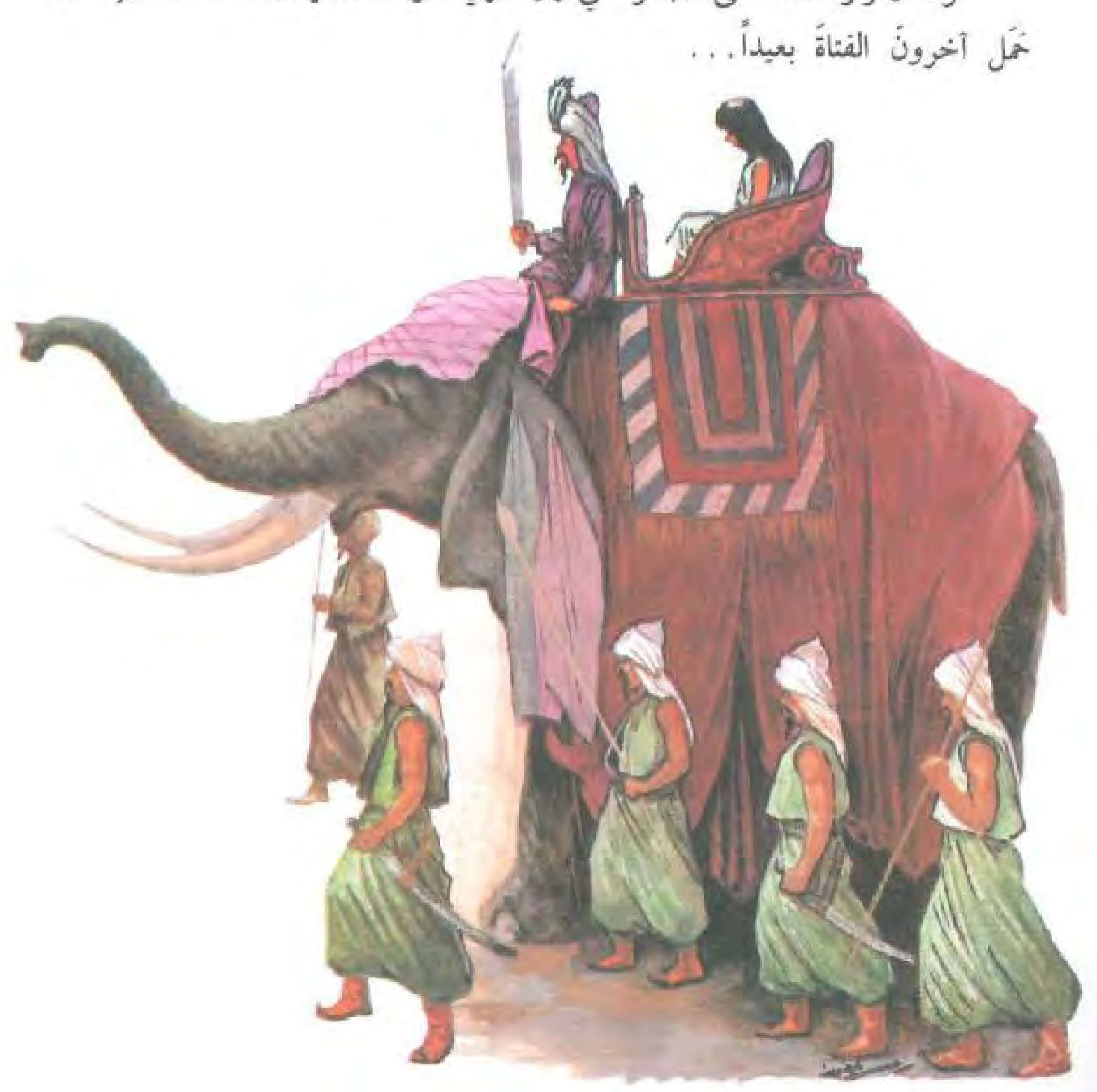
وصرخَتِ الفتاةُ فرِحةً: ـ هذه مدينتُنا. . . .

فقُلْتُ لها: «بعد قليلٍ ستكونينَ في أحضانِ والديْكِ...».

فأجابت: «وأَنْتَ مَعي... فسيكافِئُكَ أبي كثيراً..»، قُلْتُ: «إنَّ مكافأتي هيَ عودتُكِ إليهِمَا سالِمَةً...، فَلَرُبَّما أرادَ اللّهُ لي أنْ أتعرَّضَ لهذهِ المخاطرِ والمغامراتِ ثمَّ أكونَ السببَ في خَلاصِكِ وإنقاذِكِ...».

نَزَلْنا إلى الشَّاطىءِ... والناسُ قدْ تجمّعُوا ينظرُونَ إليْنا...

وما أنْ رأَوْا الفتاةَ حتَّى هَجمُوا عليَّ وأوْسَعُوني ضَرْباً بالأيْدِي ورَكْلاً بالأرْجُلِ، بينَما حَمَل آخرونَ الفتاةَ بعيداً...



وحضر الحَرَسُ، ومِنْ غيرِ سؤالٍ ولا جوابٍ، قيّدوني بالسلاسِلِ وساقوني إلى السجْنِ. . .، وذهبَتْ كُلُّ محاولاتي في شَرْحِ الموقفِ لَهُمْ. . سُدىً. إذ كانوا يتصوّرون بأنّني خاطفُ الأميرةِ الصغيرةِ بنتِ المَلِك. . .

وفي زَنْزانَتي في السجنِ جَلَسْتُ أبكي حالي، وسُوءَ حَظّي. . .، فكُلَّما خرجْت مِنْ ورْطةٍ ومِحْنةٍ وقعتُ في مِثْلِها أو أسْوأ مِنْها. .، ومَنْ يدْري هذه المرّةَ كيف ينتهي أمْري ويكونُ مصيري. . .، رُبّما أفْقِدُ عُنُقي قَبْلَ أنْ تُعْرَفَ الحَقيقَةُ. .

مكثْتُ يوماً وليْلةً في السِّجْنِ. . أجْهَلُ المصيرَ وأنتظرُ قَدَرِي. . . ثُمّ سمِعْتُ جَلَبَةً وضوضاءً خارِجَ الزِّنْزانة. .، ثُمّ فُتِحَ البابُ وأسْرعَ الحُرّاسُ نحْوي يحلُّونَ وِثاقي. ومن ورائِهِمْ رجُلٌ يعْلُوهُ الوقارُ. .

فانْحَنَى له الجميعُ. . . احْتراماً، ثُمّ تقدَّمَ نَحْوي وانْحَنى أمامي. . .، واعْتذرَ مِنّي علَى ما حَدَثَ وحَصَلَ. . .

كُنْتُ في ذُهُولٍ من فَرْحةِ الخَلاصِ. . .

وعرفْتُ بعد ذلك أنّه قائِدُ الحَرَس. .

أمْسَكَ بِيَدي، وقدّمَني أمامَهُ. .، وخَرَجْنا في مَوْكِبٍ حتَى أتيْنا بابَ القَصْر.

ثُمّ أدْخلُوني الحَمّامَ. .، فاغتسلْتُ بالماءِ المعطّرِ بعِطْرِ الوَرْد، وجاؤوني بثيابٍ فاخِرةٍ وحُلّةٍ مُزَرْكَشةٍ، لا يَرْتَدِيها سوى طبقةِ الأُمَراء، ووضَعُوا علَى رأْسِي عِمامةً مرصّعَةً بالأحْجَارِ الكَريمة. . .

ومَضُوا بي إلى قاعةٍ فسيحةٍ، وقَفَ في أرْجائها الوزراءُ والكبراءُ، وتجَمّعُوا حوْلي يُهَنّئُونَني على شَجَاعتي وبُطولَتي وسَلامتي.

ثم حَضَر المَلِكُ والمَلِكَةُ. . . وأميرَتي الصغيرةُ. .، فانحَنَى الجميعُ إجلالاً ووقاراً. .، وأسْرعَتِ الأميرةُ نحْوي، وتعلّقَتْ بي، وأشارتْ نَحْوَ المَلِكِ والمَلِكَةِ، قائلةً لي:

ـ هذا أبي وتِلْك أمّي...

فتقدَّم الملِكُ مِنّي وقالَ:

ـ إنهضْ أيُّها الرجلُ الشجاعُ..، لقَدْ قابَل جُنودي إحسانَكَ لي بالإساءَةِ إليْكَ، وساقوكَ إلى السِّجْنِ ظنّاً منهُمْ أنّكَ خاطِفُ الأميرَة... وأريدُ أنْ أعتذِرَ إليكَ وأكافِئَكَ...، فاطلُبْ ما شِئْتَ...

كُنْتُ قَدْ فَقَدْتُ كيسَ الجواهِرِ التي جَمَعْتُها مِنَ المَغارَةِ...، وهِيَ ثَرْوتي الآن، بَعْدَ أن فَقَدْتُ كُلَّ شيْءٍ...، فقلْتُ للمَلِكِ:

مَوْلايَ المَلِك... لا أريدُ شيْئاً سِوَى الكيسِ الذي أخذَهُ الجنودُ مِنّي...
فضحِكَ الملِكُ وقال:

ـ إن الكيسَ في حُجْرتِكَ التي خَصَصْتُكَ بها طِوالَ مُدَّةِ إقامَتِكَ عِنْدَنا، أما المكافأة... فشيْءٌ آخَرُ...

قلتُ: «يا مَوْلايَ إن مكافأتي هيَ سعادةُ الأميرةِ الصغيرةِ بعودَتِها سالِمَةً، أما الكيسُ ففيهِ كُلُّ ما يُعَوِّضني، بَعْدَ أنْ ضاعَتْ مِنّي ثَرْوَتي وتجارتي...».

قالَ المَلِكُ: «وكيْفَ كانَ ذَلِك؟»

فحكيْتُ لَهُ حِكايَتي كُلَّها.

في اليومِ التالي دعاني الملكُ إلى لِقائِهِ، فدخلْتُ عليه قاعةَ العَرْشِ، وكانَ الوزراءُ والأمراءُ يقفونَ مِنْ حَوْله...

وما أنْ رآني حتّى نزلَ عنْ كُرْسيِّهِ وبادَرَ لِلقائي، وهذهِ لَفْتَةٌ عظيمة، قلّما يفْعَلُها المَلِكُ إلّا لِمَنْ هُمْ على مستواهُ وأمثالِهِ في السلطانِ والحُكْمِ. وأخذَ بيدي، وأجلَسَني إلى جِوارِه...

ثم قالَ: منَ الآن، أنتَ وزيري الأوَّلُ. . .، لكَ قصْرٌ خاصٌ بِكَ، ولكَ الحُكْمُ والسُّلْطانُ، والكلمةُ النافذةُ على البلادِ والعِبَاد.

فقُلْتُ: شُكراً لمولاي الملكِ على هذهِ الثقةِ الغاليةِ. . . .، فقطْ أريدُ بادِئَ ذِي بَدْءٍ أن أُمْسِكَ بعصابةِ الزنوجِ الذينَ خطَفُوا الأميرةَ قَبلَ أنْ تسْنَحَ لهُمُ الفرصةُ ويَفِرّوا منَ الجزيرة. . .، كيْ نأمَنَ خطَرَهُمْ وشَرَّهُم.

فقالَ الملكُ: «إفعَلْ ما تَشاءُ مِمَّا تراهُ مناسباً، فَأنْتَ صاحِبُ الرَّأْيِ والتصرُّفِ. . .، كما أنَّ لَكَ كُلَّ ما تجدُهُ بحوْزتِهِمْ منْ مالٍ ومَتَاعٍ. . .».

وفي نَفْسِ اليَوْمِ أرسلْتُ حملةً إلى الجزيرةِ، منْ مَرَاكِبَ كبيـرةٍ، مملوءَةٍ بالجُنْدِ المدجَّجينَ بالسِّلاحِ، فأحاطوا بالجزيرة، وألْقَوْا القبضَ على أفرادِ العِصَابةِ، واسْتَوْلَوْا على أمْوالِهم وكُنُوزِهِمْ ومدَّخَرَاتِهم، وحينَ عادُوا بهِمْ أمرْتُ بضَرْبِ أعْناقِهِمْ. .

وانتقلْتُ منْ قصرِ المَلِكِ إلى قصْري الجَديد. . .

وفي كُلِّ صباحٍ كنتُ أحضرُ إلى ديوانِ الحُكْمِ، فأُصَرِّفُ شؤونَ البلادِ، وأُعْطي الأوامِرَ، وأتلقَّى الشَّكاوَى. . .

وفي المساءِ أكونُ في حضرةِ المَلِكِ والمَلِكَةِ. . والأميرةِ الصغيرةِ.

مضتْ شهورٌ عديدةٌ على هذا الحالِ وأنَا قائمٌ بمهامِّ الحُكْمِ والوزارَةِ خيرَ قِيامٍ، فنشَرْتُ العدْلَ بينَ الرعيَّةِ، وأصبحَتِ البلادُ كلُّها في أمْنٍ ورَخاء.

في ذاتِ يومٍ جاءَني رئيسُ الحرسِ، يُخْبِرُني بدخُولِ مَرْكَبٍ إلى الميناءِ، فيهِ تُجّارٌ مِنْ مدينةِ «البَصْرة». . .

فطَلَبْتُ إليهِ أنْ يُحْضِرَهُمْ إلى مجْلسي فوْراً. . .

وجلَسْتُ أنتظِرُهُمْ، وقَدْ سَرَحْتُ بخيالي بَعيـداً، أسترجِعُ الذكرَيَاتِ عنْ مدينةِ «بغداد». . .، والرَّجُلِ الطيِّبِ الذي عَطَفَ عليَّ. . ونصَحَني. . وساعَدَني. . .

عادَ رئيس الحَرَسِ ومَعَه التُجّارُ، رُكّابُ المرْكَبِ..، فنظرْت إليْهِمْ بدهشةٍ وعجب..، لقَدْ كانوا زملائي في المرْكَبِ الذي أَبْحَرْتُ فيه منْ ميناءِ «البصْرة»...،

لمْ يَعرفوني.. ولمْ يَذكُروني..

ومرَرْت بِيَدِي على لِحْيتي، ففطنْتُ إلى أنّني قدْ تغيَّرتُ عليهِمْ، وصرتُ أبْدو أكبَرَ سِنّاً...، كما أكسبَتْني الوزارةُ هيْبةً ووقاراً...

سألْتُهُم: أيْنَ قُبْطانُ المرْكَبِ؟

فأخبروني أنّهُ ما يَزالُ فيهِ، فأمرْتُ بإحضارِهِ، فأسرَعَ قائدُ الحَرَسِ وجاء بِهِ، وأدخلَه عليَّ...، كانَ كثيرَ الخوْفِ شديدَ الذُّعْرِ.. يظنُّ أنهُ قدِ ارتكبَ خطأً يستوجِبُ العِقَاب...

فطمْأنْتُهُ... ولاطَفْتُهُ...،

ثم ذكّرْتُه بأشياءَ حَدثَتْ منْذُ خروجِنا مِنَ «البصْرة»..، فبدَتِ الدهْشةُ على وجهِهِ ووجوهِ أصحابِهِ، وقال القُبْطان:

«نعم... يا موْلايَ، كانَ معَنا راكبٌ شابٌ صغيرُ السِنِّ، إسمُهُ (السندبادُ) مِنْ أهْلِ «بغداد»... ففقدْناهُ في جزيرةٍ نزلْنا بِها للرَّاحَة... وقد آلْتَهمَتْهُ الحِمَمُ البركانيّة...».

قُلْتُ: «ولماذا لَمْ تُحاوِلُوا إنقاذه؟»».

قال: «لقدْ رأينا الجزيرةَ كلَّها تهتزُّ تَحْتَ أقدامِنا، والحُمَمُ تتساقطُ فوقَ رؤوسِنا، فأسْرَعْنا بالفِرارِ إلى السفينةِ نطلُبُ النّجاة، كُلٌّ يحاولُ إنقاذَ نَفْسِهِ، ولم نَتَبَيَّنْ غيابَهُ عَنّا إلاّ بعْدَ أنْ أقلَعَتْ بنا السفينةُ...، ولعلَّه - يا موْلاي - كانَ بَعِيداً عنّا فوقَ أرضِ الجزيرةِ... منفرداً بنفسه..».

قُلْتُ: «وأيْنَ تجارتُهُ وبضاعَتُهُ التي كانَتْ في السفينة..؟».

قال القُبْطان: «موجودَةٌ... كما هِيَ لَمْ تمسَّها يدٌ بسوءٍ...، حفظتُها لهُ حتّى

أعودَ إلى «بغداد» فأَسْأَلُ عنْ أَهْلِهِ وأسلِّمَها لهُمْ . . .» .

سألْتُ التجارَ عنْ حقيقةِ ما يقولُ القُبْطانُ ، فقَالُوا : «إنَّه صادقٌ وأمينٌ ، والبضاعَةُ ما زالتْ مَعَنا فِي المَرْكَب . . .» .

قُلتُ في نَفْسي : «سُبْحَانَ آللّهِ . . . المالُ الحلالُ لا يَضيعُ . . .

ثمَّ التفتُّ إلى التُّجّارِ وقُلْتُ لهم :

ـ «ما رأيكم لَوْ أنَّ صاحبَ هذهِ البضاعةِ ما يزالُ على قَيْدِ الحياة!!؟» فقالُوا جميعاً : «مُسْتَحِيلٌ . . . لقدْ رأيْنا الجزيرةَ مِنْ على ظَهْرِ السفينة تشْتعلُ كُلُّها!!!» ، ولا بُدَّ أنّه هَلَكَ . . .» .

فَقُلْتُ : «لقد تَعَجَّلْتُم الحُكْم . . . ونسيتُمْ أنَّ آللّهَ على كُلِّ شيْءٍ قدير . . .» ، أَنْظروا إلى وَجْهي جيِّداً وتَفرَّسُوا فيه . . وتحقَّقُوا مني . . .» .

قالوا : «أنْتَ مَوْلانا ـ الوزيرُ ـ» وصاحبُ الحُظْوةِ عندَ المَلِك ـ كما عَلِمْنا ـ .

فقلْتُ لهُمْ : وماذا لَوْ كُنْتُ «السندباد» . . . ؟

وحكَيْتُ لهُمْ حِكايتي كُلَّها ، فآندفعُوا منْ غَيْر تكليفٍ يعانقونني ويهنئونني بالسَّلامَةِ . . . وبِمَا حصَّلْتُهُ من جاهٍ وسُلْطان .

وصارَ القبطانُ يعتذِرُ ويتأسَّفُ على ما حَدَث . فطمْأنْتُهُ بأنَّ الذَّنْبَ ذَنْبي . . . ولا عَتَبَ عَلَيْه .

واسْتَضَفْتُهُمْ في قَصْري ، وقَصَصْتُ على المَلِك الحكايةَ . . . ، فتعجَّبَ . . وأَمَرَ رئيسَ ديوانِ رسائِله أنْ يَكْتُبَ قِصّتي . . .

وقال لي : «لا بُدَّ أنَّ هؤلاءِ التُّجارَ قدْ ذكَّروكَ ببلدِكَ ، وأنْتَ تحِنُّ إليها بالطَّبْع . . .» .

فقُلْتُ : «نعم يا مولايَ . . . وبِوُدِّي أنْ أرافِقَهُمْ ـ لو أذنْتَ لي ـ» .

فقالَ الملكُ: «أنْتَ تعرفُ مكانَتَكَ عندَنا. . وحُبَّ الرعيَّةِ لكَ، لكنِّي أعرفُ أيْضاً حَنينَ الإنسانِ إلى وَطنِهِ وأهْلِهِ. . ، فإن شئْتَ أنْ ترحَلَ مَعَهُم فلَكَ ما تُريدُ على أنْ نَراكَ ثانيةً. . .».

فقُلْتُ: «لَكَ عهْدي ووَعْدي بِذلِكَ. . .، فإنَّ قلْبِي قَدْ تعلَّقَ بحبِّكُمْ وحُبِّ هذا البلدِ الكريمِ المضيافِ. . . ولنْ أغيبَ طويلاً بإذْنِ اللّه».

وجاءَ يوْمُ الرحيلِ. . .

وذهبْتُ لِوَداعِ المَلِكِ والمَلِكَةِ والأَميرةِ الصغيرةِ. . . وكانَ وداعاً حاراً غَلَبَتْنا فيهِ الدموعُ. . .

ووقفَ الوزراءُ والأمراءُ، وهُمْ في غايَةِ الحُزْنِ لفِراقي. . ، وَقَدْ حَمَلَ كُلٌّ مِنْهُمْ هديَّةً نفيسةً على سبيلِ الذكْرى، وراحُوا يُعانِقونني ويتمنّونَ لِي سلامَةَ الوُصُولِ. . .

وجاءَ الدَّوْرُ علَى الملكِ والملكةِ والأميرةِ الصغيرةِ. . ، فكانَتْ هديَّتُهمْ صَنادِيقَ مَلِيئَةً بالدُّرِّ والجوْهَرِ النَّفيسِ. . .

وسارَ الجميعُ مَعِي في موْكِبٍ مَهيبٍ حتَّى بَلَغْنا مَرْسَى السفينةِ في المِيناءِ. . . فَسَلَّمْتُ علَيْهِمْ وودَّعتُهُمْ فرْداً فرْداً. . وعاهدْتُهُم على العوْدَةِ.

واعتلَيْتُ ظَهْرَ السفينةِ. . . وَوَقَفَ النَّاسُ علَى الشاطئِ يلوِّحونَ لي، وكأنِّي مَلِكٌ، أو سُلْطان. . .

وتحرَّكَ المَرْكَبُ مِنَ المِيناءِ. . .

وكتبَ اللّهُ لنا السلامةَ في رِحْلَتِنا هٰذِهِ، حتى بَلَغْنا «البصْرة»، وَلَمَّا نزلْنا إلى البَرِّ، اشتريْتُ ثلاثمِئَةِ جَمَلٍ، حَمَّلْتُها بأحْمالي ومالي، فصَارَتْ قافلةً كبيرةً لَمْ يَرَ الناسُ مِثْلَها فِي السَّابِقِ.

وبعدَ أيامٍ كُنَّا عَلَى مَشارِفِ «بغْداد». . .، «بغْداد» الوَطَن. . ، فَخَرَجَ النَّاسُ لِلِقائي بَعْدَ أنْ سَمِعُوا بحَجْمِ القَافِلَةِ. . .

وقَصَدْتُ أوّلاً إلى التّاجِرِ الطيبِ الكريمِ ، صديقِ والدي ، وقدِ ازْدَحمتِ الشوارعُ والأسْواقُ بالجِمالِ المُحَمَّلة . . ،

وحينَ قابلْتُهُ عانقَني بحرارةٍ والدُّمُوعُ تنهمِرُ مِنْ عينَيْهِ، وأخذَ يردِّدُ: بِسْمِ ٱللهِ. . . ما شاءَ ٱللّهُ . . . ، رَحِمَ ٱللّهُ والدك . . . لَقَدْ أنْجَبَ رجُلاً من خِيرةِ الرِّجال.

وناولني مِفْتاحَ قَصْري. . .

فشكرتُهُ، مُعْترفاً بفضْلِهِ وإحسانِهِ وحُسْنِ تَوْجِيهِهِ.

لَمْ تمْضِ سوى أيامٍ قليلةٍ حتّى عادَ إلى القصر بهاؤه وَجَمالُهُ، وامتلأ بالخدَمِ والحَشَم، وامتلأتْ حُجراتُهُ بالأموالِ والنَّفائِسِ. . ، ولم يعُدْ يقْصدني فيهِ إلا أهْلُ العلْمِ والفضْلِ ، وكذلكَ الفقراءُ أصحابُ الحاجَات.

أما مَتْجَرُ أبي فقدْ صارَ أكبرَ متجرٍ في السُّوق، وفي «بغداد» كلِّها، وعادَتْ لي مكانَةُ أبي بيْنَ التجّار، وطابَتْ لِي الحياةُ. . . وآزدهَرَتْ. . .

وَإلى اللِّقاء. . .

في رِحْلَتِي الثّانِيةِ،

الّتِي كانَتْ اعْجَبَ مِنَ الأولى. . .

أسئلة حول الرحلة الأولى

١	أين نشأ السندباد البحري؟ هل كان مدلّلاً؟
٢	هل ساعد السندباد أباه في تجارته عندما طلب إليه ذلك؟ لماذا؟
٣	عاد السندباد إلى القصر يوماً فوجده مليئاً بالتجار والخدم ينتحبون. لماذا؟
٤	ماذا أعطى كبير الخدم للسندباد؟ هل حافظ السندباد على ثروته؟ كيف تصرّف؟
٥	ماذا كانت نهاية سياسة التبذير التي اتبعها السندباد؟ هل بقي أصدقاؤه حوله؟ لماذا؟
٦	ما هي النصيحة التي قدّمها التاجر للسندباد عندما عَرَضَ عليه شراء قصره؟
٧	ما هو الموقف الذي اتخذه بعض التجار من السندباد عندما رأوه واقفاً أمام محل والده؟
٨	هل اقتنع السندباد بفكرة السفر؟ إلى أين توجه؟
٩	هل وافق قبطان السفينة على انضمام السندباد إلى المسافرين؟ هل كان للسفينة وجهة معيّنة؟
١٠	إلى أين وصلت السفينة؟ هل فرح المسافرون عندما نزلوا إلى هذه الجزيرة؟
١١	لم استيقظ السندباد مذعوراً؟ وماذا فعل؟ وماذا كانت النتيجة؟
١٢	هل استطاع السندباد النجاة؟ كيف؟
١٣	هل فرح السندباد عندما شعر بقدوم مراكب إلى تلك الجزيرة؟ هل بقي على فرحه؟
١٤	صف الفتاة التي كان يُمسك بها الزنوج وصفْ حالها.
١٥	أين خبأ الزنوج الفتاة؟ ماذا فعل السندباد بعد انصرافهم؟
١٦	ما هي المعلومات التي حصل عليها السندباد في حواره مع الفتاة؟
١٧	ماذا رأى السندباد في المغارة عندما طلع الصباح؟
١٨	ماذا أخذ السندباد من المغارة وماذا فعل عندما عاد الزنوج إلى الجزيرة؟
١٩	ماذا فعل الحرس عندما عادت الأميرة إلى مملكة والدها ومعها السندباد؟
٢٠	هل استمر السندباد في الأسر طويلاً؟ كيف عاد إلى الحرية؟
٢١	بماذا كافأ الملك سندباد؟ وما هي أول مهمة نفذها السندباد؟
٢٢	هل التقى السندباد مجدداً برفاق السفر؟ كيف؟
٢٣	كيف جرى وداع السندباد؟ هل عاد إلى قصر السندباد ومتجره عهدهما السابق؟

قاموس الألفاظ

أ

اتقهقرَ: أتراجع.
أصَخْتُ: أصغيت.
اعْتراني: أصابني.
وأمْسكُ الأمر: أكف وامتنع عنه.
أناخ الجمل: أبركه (جعله يبرك).

ب

بَخْس: رخيص - زهيد.
بُهِت: سكت متحيراً.

ت

تَواري: تختفي.
تغذُّ السَّير: تُسْرِعُ.
توسَّدْت: اتخذت وسادة.

ح

الحادي: المنشد.
حُجُرات: غُرَف.

د

دامس: (ظلام) شديد السواد.

ر

ربَّت: ضرب بلطف وتودُّد.
ربوة: تلّة.
الرياش: الأثاث.
ريح رخاء: ريح لينة لا تحرك شيئاً.

س

سابغ: (ثوب) طويل.
سذاجة: بساطة في التفكير.

ع

العبير: الطِّيب. العِطْر.

ف

فجيعة: مصاب.
فقهاء: علماء أذكياء.

ق

قصعة: صحفة (صينيَّة).
قَفْراء: أراض صحراوية قاحلة.

ك

كاسف: سيء الحال.
كثبان: تلال من الرمال.

ل

لاحت: ظهرت من بعيد.

م

معْدَم: مفتقر.

ن

النزر: الشيء القليل.
نَهَم: شراهة.
نوادر الكلام: غرائبه.

و

الوقار: الرزانة والحلم.

ي

يجوبون: يطوفون يقطعون.
ينتحبون: يبكون بكاء شديداً.



رحلات السندباد

الدار النموذجية للطباعة والنشر
صيدا - بيروت

